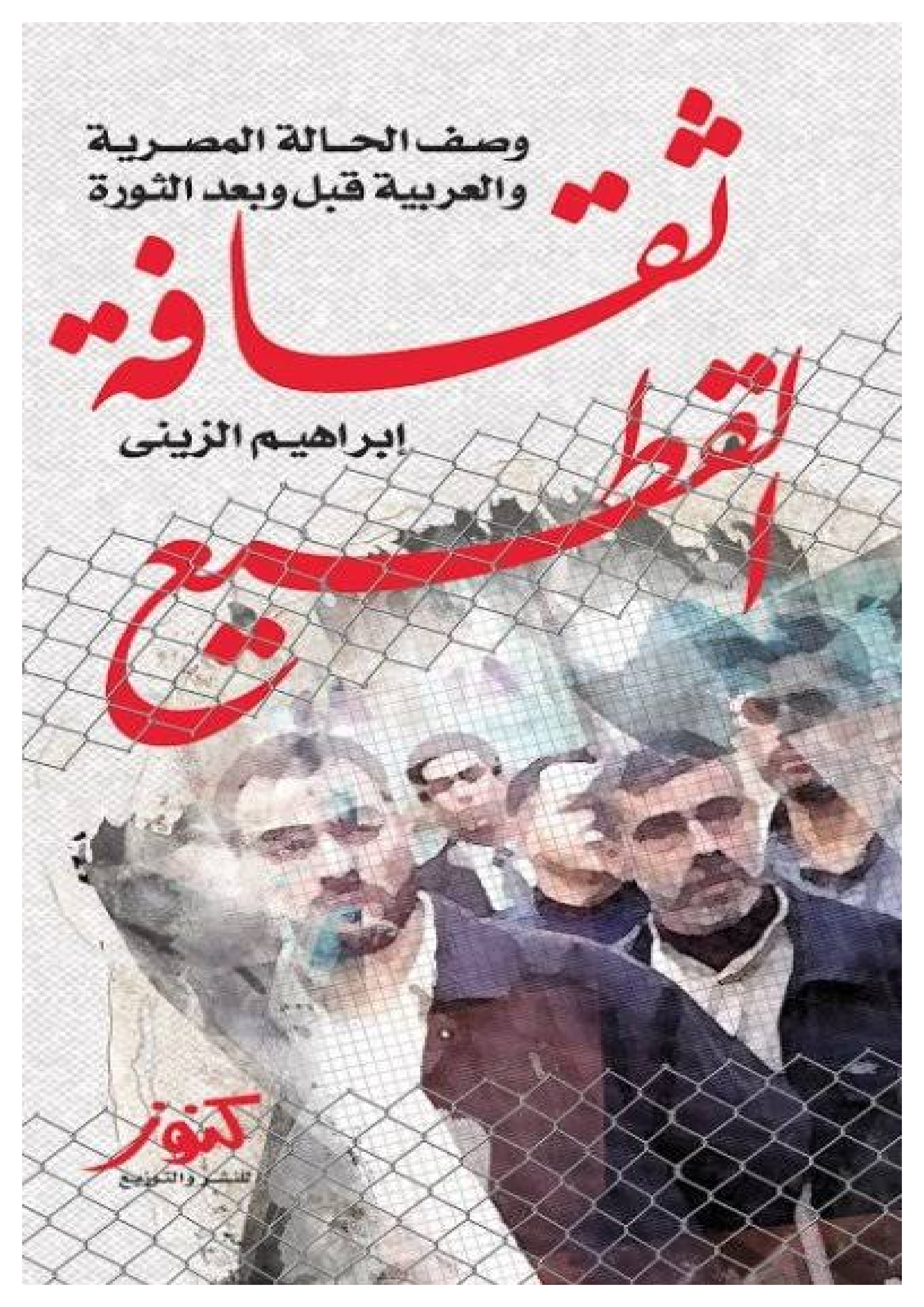

وصف الحالة المصرية
والعربية قبل وبعد الثورة
ثقافة القطيع
إبراهيم الزينى
كنوز
للنشر والتوزيع

# ثقافة القطيع

## وصف الحالة المصرية قبل وبعد 25 يناير

إبراهيم الزيني



# بطاقة فهرسة



مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : ثقافة القطيع

المؤلف : إبراهيم الزيني

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى 2011



Tokoboko_5@yahoo.com

# الإهداء

**إلى أولادى خالد وصافيناز وباهر** ، أرجو أن تغردوا خارج السرب ولا تسيروا مع القطيع فتكونوا مثل «خنفس كافكا» الرجل الذى صحى من نومه فوجد نفسه «خنفس» ففقد هويته، فلاهو إنسان ولا هو خنفس، مثله مثل القطيع فى مصر الذى نسى أنه كان أرقى إنسان فى العالم لسبعة آلاف سنه، وحتى لا يصدق عليكم قول الإمام الشافعى :

«وأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ، ، ، ولا أنثر الدر الثمين على الغنم »

**إبراهيم الزينى**

# مقدمة دار النشر

هذا الكتاب كان معدا للطبع آخر شهر يناير وبالمصادفة يوم 26 يناير أى بعد قيام الثورة بيوم واحد وتم عمل البروفات الكاملة لدخوله المطبعة ..ولكن جاء 25 يناير بزخمه الرائع ، والتقت فرحة دار النشر مع فرحة الكاتب خاصة وأن الكاتب تنبأ بهذه الثورة داخل صفحاته .. كما تنبأ أيضا ببعض سلوكياتها التى حدثت اعتماداً لفهم الكاتب للهوية المصرية وأصالتها ..والتقت رغبة الدار مع رغبة الكاتب فى تأجيل الطبع ..لعدة أسباب منها ،أن قيام الثورة والأحداث التى تليها ربما لا تتفق مع التحليل وعرض المحتوى داخل الكتاب وهذا لا يتفق مع مصداقية دار النشر التى تحرص على ثقة القارئ فى كل ما تقدمه من كتب وفكر وشاركنا الكاتب فى هذه المسئولية ، وتوقف طبع الكتاب ستة أشهر حتى تتضح الصورة .

وكأنه كتاب آخر ولكن يبقى السؤال الذى ألح عليه الكاتب دوما ولم تتم الإجابة علية حتى الآن رغم هذه الثورة واصلت ثقافة القطيع تطل علينا بعد الثورة كما كان قبلها .. ولكن يبقى هناك الجديد .. والمبتكر الذى سوف تراه فى هذا الكتاب .....

# مقدمة الكاتب

إلى أى حد يمكن القول إن منظومة القيم السائدة فى مصر الآن ليست قيما مصرية..!!

وإذا كانت هذه القيم السلبية واردة من ثقافات أخرى غير مصرية فكيف سيطرت على الشخصية المصرية وطردت القيم الموجبة؟!!

وما هى الأسباب الحقيقية لاختلال منظومة القيم فى مصر؟..

هذه ليست أخلاق المصريين التى نعرفها وليست قيمهم التى تربوا عليها.. إن ما حدث للشخصية المصرية من تدهور وانحطاط يحتاج منا مئات الدراسات التى تلقى الضوء على ما حدث للشخصية المصرية.. وكيفية تأثير ذلك على الهوية المصرية التى ارتبطت بالمصرى منذ آلاف السنين.. دون أن يستطيع محتل أو غازٍ فصل الإنسان المصرى عن مخزونه الثقافى أو هويته..

مصر تمر بحالة لم تمر بها من قبل طوال تاريخها الطويل الذى استمر لأكثر من سبعة آلاف سنة، صحيح أنه حدثت لها انتكاسات وهزائم ومجاعات واستعمرها شعوب همجية وشعوب أيضا متحضرة لكنها أبدا طوال هذه الانتكاسات لم تفقد هويتها وبناءها القيمى أو مخزونها الثقافى ذلك المخزون الذى ارتبط بالإنسان المصرى قدر ارتباطه بالأرض التى نشأ عليها واختلطت أحلامه وأمانيه بطينها وماء نيلها.

فكان الإنسان المصرى ومخزونه الثقافى كأنهما التصقا ببعضهما كالتصاق الجلد بالجسد، فلنتخيل أنك وضعت إنسانا داخل تابوت ووضعت معه داخل هذا التابوت مخزونه الثقافى وأغلقت التابوت عليهما لسبعة آلاف سنة، هذا ما كان عليه الإنسان المصرى رغم كل النكسات التى أصابته فى عصور الضعف والاحتلال، لكن الإنسان المصرى يمر الآن بحالة مصرية جديدة عليه وتكاد هذه الحالة تقضى بعنف على كل ذكرياته مع مخزونه الثقافى وتحوله إلى إنسان آخر غريب عن ثقافته وقيمه وأرضه وسمائه ونيله، إنسان لا تعرفه عندما تنظر إليه ، فإننى أخجل منه كما أكاد أذرف الدمع عليه.

فهذا الإنسان المصرى هو أول إنسان على ظهر الأرض أنشأ مجتمعا مدنيا وأول من زرع الأرض وأول من صنع وأول من وضع القوانين التى تنظم العلاقة بينه وبين أبناء وطنه وأول من عرف الدين وأول من بحث عن إله ليناجيه وليؤكد له أنه يسير على القيم العليا التى أضفاها هو نفسه على الإله الذى اخترعه. وأول من غنى ورقص ومارس الرياضة، وأول من اخترع العلوم والآداب، وأول، وأول إلى آخر الكتاب ليس بشهادتى بل بشهادة كل مفكرى وعلماء العالم أجمع، لكن الأهم من كل ذلك أنه كان أول من وضع المعايير الأخلاقية داخل كيان غير مرئى سماه الضمير ليقوم بالنيابة عنه بمحاسبته وعتابه إذا أخطأ، وقال عنه هنرى بريستد إن فجر الضمير نبت فى مصر وترعرع داخل إنسانها ثم صدره للعالم:

إذن... ماذا حدث لهذا الإنسان!! ما الذى أصابه!! كيف تدهور إلى ما هو عليه الآن!! وكيف تكون الخاتمة إذا استمر هذا التدهور؟

كلها أسئلة سنحاول الإجابة عنها فى هذه الدراسة ، التى أتمنى أن تفيد فى تشخيص الحالة المصرية حتى يستفيد منها واضعوا السياسات الاستراتيجية التى تحدد مسار هذا البلد العزيز مصر وإنسانها المصرى البطل بكل مقاييس البطولة لأنه احتمل مئات السنين من التدهور ومازال يقاوم لكننى أشعر أن مقاومته لم تعد قادرة على الصمود وسينهار قريبا إذا لم نسارع لإنقاذه.

وفى النهاية لست بعالم اجتماع أو عالم فى الصحة النفسية ، لكننى مهموم بهذا الوطن وأجزم أن علماء الاجتماع وعلم النفس فى مصر لم يستطيعوا وصف الحالة المصرية كما يجب لأنهم سقطوا فى الأمراض التى أصابت الشعب المصرى كله حتى النخبة منه، فعذرا لهم جميعا إذا حاولت أن أزاحمهم فى تخصصهم رغم عدم تخصصى ولكننى قبل أن أتصدى لهذا الكتاب حاولت قراءة عشرات الكتب فى علمى النفس والاجتماع حتى أستطيع أن أكون حياديا فى الطرح من ناحية وحتى أدرك ما خفى علىَّ من ناحية أخرى وأتمنى أن أكون قد وفقت فى تحديد الأسباب الحقيقية لانهيار القيم عند المصريين ولعل هذه الدراسة تثبت إلى حد بعيد أن الحالة الاقتصادية لم تكن السبب كما ردد الباحثون.. وليس غياب الديمقراطية هو السبب .. وإنما السبب الحقيقى هو ما سوف نبينه فى هذا الكتاب.

**إبراهيم الزينى**

# الإشكالية بين العقل والدين تنظير لابد منه

إن العقل الذي لا يتنقض هو العقل الذي قد مات. وتناقض العقل ليس ضعفًا فيه، لأن التناقض وإدراك التناقض أسلوبان عقليان. فالعقل ناقضاً ومنقوضًا هو كل المعرفة. ومن هنا تنبع أهمية العقل لأنه ينتج الفكر وهذا الفكر بالتالي هو الذي يوجه حوافز الإنسان بالإيجاب أو بالسلب، فإذا كانت إيجابية صنع حضارته وإذا كانت سلبية صنع تخلفه.

هذه المقدمة ضرورية لفك الإشكالية القائمة بين الدين من ناحية وبين العقل في المقابل، لأن الأديان دائمًا تنتصر في المعارك التي تتجنبها، فهي لا تُحَارَب بالعقل، ولا تُحارِب العقل، أي لا تدخل مع العقل في معارك حرة ولهذا ظلت الأديان دائمًا منتصرة.

إن الناس عادة يجدون دينهم كما يجدون أوطانهم ولغتهم وأرضهم وآبائهم بمجرد ولادتهم، فهم لا يبحثون عنها أو يفهمونها أو يختارونها لأنهم يعتقدون أولا ثم لا يفكرون لينعموا بمتعة الكسل العقلي، لأن الأديان لو كانت خاضعة لحكم العقل لضاقت الخلافات فيما بينها وتناقصت، أو لتداخلت وتوحدت كلها في دين واحد كالذي يحدث في الإنتاج العلمي الصناعي الذي يبتكره العقل، ولوجدنا المؤمن يخرج من دين إلى دين بالسعة والسهولة التي ينتقل بها من فكر إلى فكر.

لكن الأديان اختلفت، وأصبحت أنت ومخالفك كل منكما يرى أن دينه هو الحق وأن شيطانه هو القديس، كل منكما يرى الله وحده وإذا أردت أن يكون الآخرون طيبين فأنت تعني أن يكونوا متلائمين معك، متبعين لك، ومسلمين برأيك.

وأنت في هذا حتى لا تحترم نصوص دينك وكتابك حتى لو أجبرتك هذه النصوص على التسامح والسلام ودعت إلى الحرية، الحرية لكل مختلف حتى في فهم الله نفسه. لماذا!؟

لأنك تربط الدين بذاتك لا بذات الله وتعتقد أن العبادة هي عملية استفراغ روحي تؤديها الروح لحسابها لا لحساب الله.

ومن هنا جاءت كراهية الأديان للعقل، لأن العقل هو الوحيد القادر على فك هذه الإشكالية، وقد يقول قائل كيف والأديان جميعها خاصة الدين الإسلامي تمتلئ نصوصه باحترام العقل و التفكير والحرية الدينية: ( لست عليهم بمسيطر )، ( ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك )، ( فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر )، و ( ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا )، و ( ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ) كلها آيات تمجد التسامح وحرية الفكر وحرية العقيدة وتقرر أن الخلاف في الإيمان ذاته سنة الله وإرادته.

لكن هناك فرقاً بين المقال والمقام كعادة العرب الذين حملوا لواء الدين.. لقد نزل النص يحترم العقل ويحترم حرية العقيدة ويحترم الآخر، لكن بعد النص جاء النصّاصون جاء الفقهاء وجاء التابعون وتابع التابعين والمفسرون والشراح جاءوا يفاخرون أهل الأرض بأن المسلمين وحدهم الذين يعبدون إلها واحدًا لا يشركون به أحدًا، لكنهم جاءوا ومعهم أصنامهم، جاءوا ومعهم هويتهم القاتلة، جاءوا ومعهم ذواتهم المريضة، جاءوا ومعهم مخزونهم الثقافي، جاءوا ومعهم أمراضهم وآلامهم النفسية وتحولوا إلى قادة ودعاة وملهمين، وتركوا النصوص المقدسة وأوّلوها وجعلوها تخدم مصالحهم الشخصية ومصالح من يدينون لهم بالطاعة وعقدوا حلفًا مع الحكام، حلفًا مريضًا هدفه السيطرة على الأعاجم لسلب خبراتهم وملء بطونهم بما ينتجونه من طعام وإشباع غرائزهم بحرائر نسائهم فجعلوهن سبابا وإماء وجعلوا النصوص القرآنية سقفًا يحمي أفعالهم فأصبح السيف في يد الحاكم والرأي الديني في يد الفقيه وسيلة تعذيب واستنزاف لكرامة الإنسان الخاضع لإرادتها.

أما العقل فقد نقلوا وظيفته إلى القلب لأن العقل يؤدي إلى المنطق وقال الفقهاء في هذا « من تمنطق تزندق » فالمنطق مرفوض كنتاج عقلي. وقال الشاعر:

**أرى العقل بؤسًا في المعيشة للفتى**

**ولا عيشة إلا ما حباك به الجهل**

وقال الجاحظ في « رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ص 141 »

« إنما سمي العقل عقلاً لأنه يزم اللسان ويخطمه ( يقيده ) عن أن يمضي فرطًا في سبيل الجهل والخطأ والمعرة كما يعقل البعير » وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي « إنما خلق العقل ليعقل الأشياء لا ليفكر فيها، لأنه لو فكر يكون بذلك قد خرج عن حدود التكليف الذي كلفه الله به ».

أما عن نتاج العقل وهو الفكر وميدانه الفلسفة فقد كان ابن تيمية معروفا بعدائه للفلسفة والمنطق وله مؤلفات في الرد عليها، أما السيوطي فيحرم الاشتغال بالمنطق، قائلاً عن نفسه كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئًا في علم المنطق، ثم ألقى الله كراهيته في قلبي، وسمعت أن ابن الصلاح الشهرزوري أفتى بتحريمه، فتركته لذلك، فعوضني الله تعالى عنه « علم الحديث الذي هو أشرف العلوم » وللشهرزوري فتوى أفتى بها سائلاً سأله عن رأي الدين في الاشتغال بالمنطق تحصيلاً وتعليمًا، وماذا يجب على ولي الأمر فعله إزاء المشتغلين بالمسائل الفلسفية عمومًا، فأجاب الشهرزوري قائلاً « إن الفلسفة أس السفه والإغلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، ومن تلبس بها تعليمًا وتعلما قارنه الحرمان والخزلان، واستحوذ عليه الشيطان.. وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ولا استباحة أحد من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والسلف الصالح، وسائر من يقتدي به من إعلام الأمة وسادتها.. ولقد تمت الشريعة وعلومها، وخاض في بحر الحقائق والدقائق علماؤها، حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة.. فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم، ويخرجهم عن المدارس، ويقيدهم، ويعاقب على الاشتغال بفنهم، ويعرض من ظهر عنه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ».

بمعنى أن يقتل أو يستتاب وكأنه قد كفر، هذا ما قاله الفقهاء عن العقل ونتاجه وهو مخالف لكل النصوص القرآنية التي جعلت للعقل قيمة عليا، إذن ما الذى حدث! لقد تدخلت الهوية القاتلة فحرمت الإنسان المسلم من أهم ما يميزه عن الحيوانات وهو العقل ونتاجه.

فإذا نحن انتقلنا إلى حرية العبادة أو حرية الاعتقاد كما نصت عليها الآيات السابقة، فإننا نجد التدخل السافر للهوية البدوية القاتلة التي محت الحرية محوًا ولم تترك لغير المسلم أي حقوق تذكر بل جعلته عبدًا للمسلم لا حول له ولا قوة، وأصبح بذلك أشد الناس حماسةً للدين وهم الفقهاء لا يتعاملون مع إيمانهم رغم أنهم يملأون ألسنتهم بالله وتسبيحاته، ويملأون تصوراتهم بالخوف منه ومن جحيمه ورغم أنهم يكذبون على الله لتيسير أمر السلطان وفرض سطوتهم على الدهماء واستنزاف خيراتهم، فيفرقون بين الذمي والمسلم، وبين الأعجمي المسلم والعربي المسلم، وبين العربية المسلمة والأمة المسلمة، وبين العربي المسلم والعبد المسلم، فيلغون بذلك كل آيات المساواة بين البشر في القرآن الكريم، ويخالفون النص في حرية تغيير الديانة « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ويقول عمر بن الخطاب قولته المشهورة عن أهل الذمة ( كيف أعزهم وقد أذلهم الله ) وهو بهذا يخالف النص ويغلب عليه هويته العنصرية.

وإذا أردنا الحديث عن الحرية الدينية في الإسلام فإننا لا نذكر وجودًا لكلمة الحرية إلا فيما يتعلق بتحرير العبيد من الرق والتفريق في الوصف بين المرأة الحرة والمرأة الأمة، لكن الحرية بمعناها الحالي لا ترد في القاموس العربي الا بمعنى فك القيد وإطلاق الصراح، لا حرية الاختيار أو حرية الفن أو حرية التوجه.

وخير مثال لإدراج سيطرة الهوية العربية على مفهوم الحرية الذي أباحه النص الديني هو ما جاء في الوثيقة العمرية التي فرضها عمر بن الخطاب على أهل الذمة، ففيها ما فيها من تأكيد هذه السيطرة للهوية العربية القاتلة لمفهوم النص القرآني الكريم حتى أن الفقهاء انتهوا أخيرًا إلى أن آيات حرية العقيدة قد نسخت بآية السيف.

لقد قتلت الهوية العربية كل من قتلت باسم الله، وحاربت من حاربت باسم الله، وطغت على من طغت باسم الله، فقالوا عن عمر بن الخطاب لقد قتله الله، وكذلك قالوا عن مقتل عثمان وعلي ويزيد بن معاوية والحسين بن علي وعن عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب، ونفس الشيء قالوه عن الخوارج بداية من نافع بن الأزرق ونهاية بشبيب بن يزيد الخارجي.

كلهم قتلهم الله رغم أنهم جميعًا رفعوا راية « لا إله إلا الله » كلهم قتلهم الله رغم أنهم جميعًا أعلنوا أنهم خلفاء لله وأعلنوا أمرتهم للمؤمنين.

إن الدعاوى الإسلامية كثرت هذه الأيام تطالب بالحكم بالإسلام بعضها يطلبه بالطريقة السلفية، وبعضها يطلبه بالطريقة الشيعية، وبعضها يطلبه بالطريقة التركية ( طريقة كمال أتاتورك ) التي بدأت سنة 1923 وسيان كان مطلب هؤلاء أو هؤلاء فإننا نحب أن نؤكد: ـ

ـ أن الذهنية الإسلامية في هذا العصر هي ذهنية جاهلة لأنها تفتقد أول ما تفتقده إلى العقل، وتعتمد اعتمادًا احاديًا على الموروث الثقافي البدوي، الذي لا يعطي العقل أي وظيفة: اللهم إلا كيف يطغي! وكيف يسيطر! وكيف يدبر المكائد! وكيف يقتل الخصوم ويكفر الآخر!

ـ إن مرجعية هؤلاء هي مرجعية دينية، رضعت فكرها من بيئة صحراوية ذات هوية قاتلة لقيم الدين نفسه، فكيف تتحول إلى مرجعية مدنية تقيم حضارة مدنية هدفها سعادة الإنسان واحترام مشروعها الحضاري؟

ـ إن التجربة التركية وبعد مرور 90 عاما على قيامها رغم علمانيتها لم تستطع حتى الآن أن تقدم للإنسان فيها التطور الحضاري المنشود، فاذا قسناها على تجربة ماليزيا التي بدأت في الثمانينيات وكانت دولة إسلامية فقيرة لوجدنا أن ماليزيا سبقت بتجربتها الديمقراطية التجربة التركية وفي سنوات تُعد على الأصابع رغم الفارق الهائل لصالح الإمكانيات التركية وقربها من صناع الحضارة!!

ـ إذا كان الإسلاميون يعتبرون أن تغيير المذاهب والانتقال من مذهب إلى مذهب فيه شيء من الكفر فكيف يكون اعتبارهم لمن ينتقل من دين إلى دين؟

وبعد أكاد أجزم أن الثقافة والفكر الإسلامي المطروح على الساحة حاليًا مهما قال أصحابه من كلام معسول لا يصلح أن يكون مرجعية صادقة لتولي مسئولية المسلمين وحكمهم، لأنهم حتى الآن لم يستطيعوا أن يفرقوا بين الدين كنص وبين أصحابه، ولم يفرقوا بين أحداث التاريخ وضروراته، ولا بين المقال والمقام، ولم تستطع عقولهم أن تفكر.. لأنهم ربطوها بعقال بدوي جعلهم مشدودين بحبل طويل يمتد ألف وأربعمائة عام، يقف على آخره مجموعة من الفقهاء ورواد ومفكري السلف يشدونه.. ويرخونه.. وقت ما شاءوا

دون أن تكون لهم حرية التفكير حتى في المادة التي صنع منها هذا الحبل لأنهم ارتدوا رداءهم وعباءتهم وخلعوا هوياتهم واستبدلوها بهوية بدوية.. هوية سلبية.. تفوح منها رائحة العنصرية المقيتة.. هوية جعلت الماضي سجنًا واصبح رجاله سجانين يحبسون فيه عقولنا وضمائرنا ومشروعنا الحضاري حتى أصبح الحاضر مجرد شيء هلامي لا لون له ولا طعم وسوف يصبح المستقبل غبيًا مخيفًا!

لقد أصبح التاريخ الهجري هو ذلك الكائن الضخم الذي يقبض علينا بقسوة، وأصبحت آلام مفكريه وأمانيهم وهويتهم التي تفجرت في أخلاق الأوائل والسلف.. يصلي اليها الضعفاء الأواخر من رجال دين هذه الأيام دون إعمال العقل والنقد والفكر فيها.

وأنني أرجو ألا يصبح الإيمان بالله فقأ للعيون عن رؤية الحق، وصمًا للآذان عن سماع الصدق، وتعجيزًا لكل المشاعر والإرادات عن الإحساس بأي شيء، وعن إرادة أي شيء، وحتى لا تصبح كلمة الله في لغتنا مرادفة لكلمة آه.

# الطبقات الاجتماعية

اتفق علماء الاجتماع والمفكرون المهتمون بعلم الاجتماع، على تقسيم الناس فى مجتمع ما إلى ثلاث طبقات رئيسية أولاها الطبقة العليا الأرستقراطية، ثم الطبقة الوسطى، وأسفلهما تأتى الطبقة الدنيا.

واتفق العلماء أيضا – فى الأغلب – على أن هذا التقسيم ليس فاصلا كخطوط الهندسة أو القوانين العلمية وإنما يكون هناك فئات صغيرة بين كل طبقة وأخرى تصعد أو تهبط إلى الطبقة التى تليها.

وفى علم الاجتماع أيضا يوجد هناك بعض الشرائح الاجتماعية الموجودة داخل كل طبقة يتميزون فيما بينهم ببعض السمات الثقافية الخاصة بل أحيانا ببعض اللغات الخاصة التى يفهمونها فيما بينهم مثل الصيادين أوعاملى صناعة الموبيليا أو غيرهم.

كانت مصر قبل الثورة تعرف تماما هذا التصنيف وكان واضحا فيها تماما فهناك ثلاث طبقات حقيقية تدرك كل طبقة منها طبيعتها تماما وتعرف حدودها وتحترم ما وصلت له الطبقة الأخرى الأكثر صعودا، وكانت العلاقات بين الطبقات الثلاث تسير وفق اتفاق متعارف عليه يكاد يصل إلى درجة العرف فأصحاب الدرجة الدنيا كانوا يدركون أوضاعهم المتردية ولا يثورون عليها، وكانوا يدبرون أمورهم

فيما بينهم والأخطر من ذلك أنهم لم يكونوا يخجلون مما هم فيه من فقر أو امتهانهم لحرف هى الأقل دونية بين الحرف، لكنهم كانوا يلتمسون العون من الطبقات الأعلى ويفرحون بما يأتيهم منها ويستقبلونه بشكر الله ومدح المانحين.

هذا فى الغالب لكن لم يكن يخلو ذلك من حقدهم على الطبقتين الأعلى، ورغم هذا الحقد فإنه لم يكن يصل أبدا لتدمير الآخرين وسيأتى الحديث عن ذلك بالتفصيل عند التعرض لوصف هذه الطبقات بالتحديد.

## ثقافة الطبقة

ما أركز عليه فى كتابى هنا هو الثقافة، وما أقصده ليس الثقافة بمعناها الذى يعرفه العامة وهو أن تكون قارئا ومطلعا على الأدب والسياسة والفنون وغيرها، وإنما ما أقصده هنا هو المخزون الثقافى لكل طبقة وهذا المخزون يشمل العادات والتقاليد والعرف وطريقة الملبس والمأكل والحرفة وكذلك الخصائص القيمية التى تحكم تلك الطبقة عن غيرها من الطبقات وكذلك طريقة حلهم للمشكلات وكل ما يحيط الإنسان على مدى تاريخه ، ويرتبط كل ذلك بالسلوك والفنون والآداب لكل طبقة عن أخرى.

فمما لاشك فيه أن ثقافة أى شعب من الشعوب تكون واحدة فى المجمل وهى تلك التى تميز شعبا عن آخر، لكن بين طبقات هذا الشعب توجد سمات وثقافة خاصة بكل طبقة وعلى سبيل المثال فإن طريقة دفن الميت عند المصريين تكاد تكون متشابهة حيث يضعون الميت فى قبر له شاهد يرتفع عن سطح الأرض، لكن عند الطبقة العليا يحاط به حوش كبير به حجرة لاستقبال الزائرين ومزروع به بعض الورود، وعند الطبقة المتوسطة يكون القبر بدون حوش ولكن شاهده يكون مصنوعا من الرخام والقبر من الحجر الأحمر، وعند الطبقة الدنيا فإن القبر يكون من الطين التى وبدون شاهد وهكذا، وحتى الدين فى الطبقة العليا يكون وسيلة للوجاهة أو للتقرب من الطبقات الأدنى، وفى الطبقة الوسطى يكون الدين فيها وسطيا لا غلو فيه ويكون وسيلة للحفاظ على ما حققه من مكاسب، أما فى الطبقة الدنيا فيكون مسكنا وعلاجا مضمونا لما يصيبه من فقر أو جهل أو مرض.

وهكذا تكون كل طبقة لها ثقافتها الخاصة داخل الإطار العام للمخزون الثقافى للمصريين.

وثقافة الطبقة هى شاغلى الشاغل فى هذا الكتاب... لماذا؟ لأن ما يحدث الآن فى مصر هو فى الأساس ثقافة جديدة جاءت من عدة فروع ولكنها فى النهاية سيطرت على المصريين فى غفلة منهم لكن فى وعى مدروس من بعض أصحاب المصالح سواء كانت حكومات أو جماعات أو دولاً.

## مفهوم الطبقة

الطبقة الاجتماعية هى مجموعة من الناس فى مجتمع ما لها نفس المكانة الاجتماعية.

وكان ماركس أول من أطلق تعريف الطبقة وكان يعتمد فى رأيه على العناصر التى تشكل الطبقة الواحدة معتمدا على الدور الذى يؤدى فى الإنتاج والوعى الطبقى عند أفرادها كما يشير إلى أهمية التضامن الطبقى ووحدة الدور فى الإنتاج والمصالح الاقتصادية المشتركة.

لكن عالم الاجتماع ورج جورجيفتشى فى مؤلفه «دراسات فى الطبقة الاجتماعية» انتقد قلة الالتفات فى تعريف ماركس إلى أنواع المجموعات ذات الوظيفة الواحدة وإهمال دراسة التناسب العكسى بين الصراع الطبقى وبين صراع المجموعات المنطوية داخل الطبقة الواحدة، وهذا وذاك يتفقان على أن الطبقات ليست بلورات صلبة، صماء، جامدة وإنما هى كائنات عضوية تتطور وتقبل التعدد اللانهائى كما يمكن أن تقبل الطبقة الواحدة تنوع المجموعات السياسية التى تعبر عنها، كما تقبل تنوع الصراعات الاقتصادية وغير الاقتصادية.

فى معظم البلاد الأوروبية يستطيع الناس فى طبقة ما أن ينتقلوا إلى طبقة أعلى وذلك لاقتراب المستوى الاقتصادى بين كل طبقة وأخرى كذلك اقتراب المستوى الثقافى، لكن فى المجتمعات الأكثر تخلفا يكون الانتقال صعبا بل مستحيلا وتسمى تلك الطبقة ذات الحواجز الصارمة الطبقة المنغلقة، وينتمى الشخص إلى الطبقة المنغلقة لوالديه، وتقيد القوانين والتقاليد بشكل صارم الاتصال الاجتماعى الذى يمكن حدوثه مع أفراد الطبقات الأخرى وقد نرى ذلك فى الهند قديما حيث هناك نظام راسخ للطبقات وكذلك فى دول الخليج بين الأسرة الحاكمة كطبقة منغلقة وبين باقى الطبقات. كما أن بهذه الدول تشكل الثقافة نوعا آخر من الطبقات التى تعتمد على الحسب والنسب كنظام القبائل حيث ترى الفقير من طبقة دنيا اقتصاديا يفخر بنسبه على رجل من طبقة عليا ثرية وأكثر علما وهذا نظام خاص بتقسيم القبائل إلى قبائل أرفع وقبائل أدنى.

وهذا ليس مجالنا لأن هذا النمط خاص بالقبائل فى الجزيرة العربية وبعض القبائل الأخرى فى آسيا وأفريقيا حيث يكون العرق والحسب والنسب معيار الحكم على القبيلة ويحدد درجتها بين القبائل الأخرى.

وتعد الوظيفة من أحسن المؤشرات عن الطبقة التى ينتمى إليها الفرد، وذلك لأن الناس يميلون إلى الاتفاق حول الهيبة النسبية التى يضعونها للوظائف المشابهة. فهؤلاء الذين فى الدرجة العليا من سلم الهيبة أو قريبا منها، يكونون عادة من ذوى الرواتب العليا والتعليم الأحسن، والنفوذ الأكبر، وعموما فإن الفئات التى تشغل وظائف قيادية وذات مسئوليات مثل رؤساء الوحدات الحكومية والصناعية، هؤلاء يصنفون على قمة المجموعات كما أن الفئات التى تحتاج وظائفها إلى تدريب طويل وذكاء عال، مثل الأطباء والعلماء المهنيين الجامعيين يأتون فى المرتبة الثانية، أما الفئات التى تكون وظائفها ذات دخل منخفض وتحتاج إلى تدريب أو تعليم منهجى بسيط مثل العمال المهرة، فإنهم يصنفون فى القاع.

## الفروق الطبقية

يؤثر الوضع الاجتماعى للفرد على سلوكه وقيمه وثقافته وأسلوب حياته، فأفراد الطبقة العليا مثلا يكونون مدركين لمكانتهم المميزة، فيحاولون المحافظة عليها بتشجيع الزواج داخل الطبقة، كما يحاولون أن يكونوا على صلة مستمرة وعلاقات خاصة بالقوى السياسية الحاكمة لأنهم يرغبون فى الابقاء على نظام التفاوت الاجتماعى القائم، ومن ناحية أخرى تتميز الطبقة العليا بأسلوب حياة رغد رفيع.

أما الطبقة الوسطى فينعم معظم أفرادها بتعليم ومستوى معيشى أعلى من المعدل المتوسط.. وتكون قيم الطبقة المتوسطة عادة هى القيم السائدة فى المجتمع، وفى العديد من البلاد تقوم الطبقة الوسطى بتأكيد أهمية التقدم الاقتصادى وتحسين الوضع الذاتى والنجاح الاقتصادى والتقدم الوظيفى.

ويؤمن أفراد هذه الطبقة بضرورة تملك العقار والالتزام بمعايير المجتمع التى تتعلق بالأخلاقيات والسمعة وعادة ما يرسلون أبناءهم للجامعات ويكونون بارزين فى مجالات شئون الدولة والوطن، وتتكون الطبقة المتوسطة من التجار والأطباء والمهندسين والمدرسين وضباط الشرطة والجيش والقضاة والمستشارين والصحفيين وممن تخرجوا فى الجامعات بالإضافة إلى ملاك الأراضى ذوى الاقطاعيات المتوسطة وكانت فى مصر من 30 إلى 100 فدان.

أما عن الطبقة الدنيا فتعليم أفرادها يقتصر على التدريب الحرفى والمؤهلات المتوسطة لأن الوظائف التى يشغلونها لا تتطلب مهارة ولأن العديد من أفراد هذه الطبقة يعيش فى حالة اقتصادية سيئة لذلك تجدهم يهتمون باحتياجاتهم المباشرة أكثر من اهتمامهم بالأهداف بعيدة المدى وتتكون هذه الطبقة من فئة العمال والفلاحين ومن فى حكمهم.

**آراء أخرى**

ورغم أن مصطلح الطبقة يعد واحدا من أكثر المصطلحات شيوعا فى علم الاجتماع إلا أنه لا يوجد اتفاق واضح حول تعريفه.

فعلماء الاجتماع يستخدمون المصطلح للإشارة إلى الاختلافات الاجتماعية والاقتصادية بين الجماعات والأفراد التى تخلق صورا للتفاوت بينهم فى الرفاهية المادية والقوة السلطوية.

وتعد الطبقة بمفهومها العلمى إحدى نتاجات الفكر الماركسى على الرغم من أن فكرة ماركس عن الطبقات جاءت مبعثرة فى مؤلفاته ويمكن تلخيصها من وجهة نظر ماركس فى أنها جماعة من الناس تتشابه من حيث الموقع الذى تشغله، فى نسق الإنتاج الاقتصادى والاجتماعى كما تتشابه فى الدخل والمنزلة الاجتماعية وأسلوب الحياة وتتشابه أيضا من حيث نصيب الطبقة فى وسائل الإنتاج.

ثم جاء لينين فذهب إلى أنها مجموعات كبيرة من الناس تختلف عن بعضها فى المركز الذى تشغله فى نظام تاريخى محدد للإنتاج الاجتماعى، وفى علاقاتهم بوسائل الإنتاج، وفى دورهم فى التنظيم الاجتماعى للعمل، ومن ثم فى القدر والطريقة التى تستحوذ بها على نصيبها من الثروة الاجتماعية التى تقع تحت تصرفها. فالطبقات إذن هى مجموعات من الناس تستطيع إحداها أن تستحوذ على الأخرى نتيجة اختلاف المراكز التى تحتلها فى نظام محدد للإنتاج الاجتماعى.. وهذا يشبه ما طرحه ماركس من ارتباط الطبقة بعملية تقسيم العمل.

أما داهرندوف فيرى أن الغموض الذى يحدث بين علماء الاجتماع فيما يتعلق بدراسة الطبقة فإنما يرجع إلى الخلط بين مفهومى الطبقة والشريحة ويعنى بالشريحة الاجتماعية فئة من الناس تشغل وضعا متشابها فى هرم الترتيب الطبقى، كما يرى أن الشريحة فئة وصفية ، أما الطبقة فئة تحليلية تعبر عن تجمعات تظهر بفعل ظروف خاصة.

ثم جاء ماركس فيبر فقال: إن تعريف الطبقة يعتمد على بعدين آخرين هما المكانة والقوة، ويرى أن كلا من الطبقة والمكانة والقوة يتداخل مع الآخر، ويعرف الطبقة بأنها مجموعة من الأشخاص يشغلون المكانة الطبقية ذاتها.

ونظرا لما سبق كله ، نستطيع أن نحدد مفهوم الطبقة الاجتماعية بوصفها «مجموعة من الناس تتشابه قيمهم الاجتماعية من خلال المكانة الاجتماعية التى يشغلونها فى نسق التدرج الطبقى، ويتحدد وضعهم الطبقى فى ضوء متغيرات الدخل والقوة والمهنة وأسلوب الحياة والوعى الاجتماعى وتقييم أعضاء المجتمع لهم».

لكن من المهم أن نضيف للتعريف السابق اشتراك الطبقة الاجتماعية فى ثقافة واحدة تختلف عن ثقافة الطبقة الأخرى وإن كانت بينها صفات ثقافية مشتركة داخل الوطن تعبر عن الهوية الأم للطبقات الثلاث.

## الطبقات الاجتماعية فى مصر

لأن مصر هى الأقدم بين كل بلدان العالم، فيذكر علماء التاريخ والاجتماع أن المصريين هم أول من كونوا مجتمعات متجاورة ذات طابع اجتماعى مدنى ويأتى بعد مصر حضارة سومر بعد أربعة آلاف سنة من الحضارة المصرية، لذلك نرى أن نظام الطبقات فى مصر قد ترسخ منذ أزمان عديدة حتى أن ثقافة كل طبقة كانت واضحة المعالم للطبقتين الأخريين، فإذا أنت اجتمعت فى حشد من المصريين قبل الثورة ومن طبقات مختلفة فإنك تستطيع بمجرد النظر أو سماع الصوت أن تفرق بين المجتمعين وتحدد نوع الطبقات التى ينتمون إليها، لهذه الدرجة كانت الطبقات الثلاث المصرية قبل الثورة واضحة ومحددة المعالم.

كانت العلاقات بين هذه الطبقات أيضا يحكمها العرف السائد وكان هذا العرف بمثابة قانون غير مكتوب بين الطبقات الثلاث يحكم الفرد من طبقة ما فى كيفية التعامل مع الأفراد من طبقة أخرى وكان كل هذا يسير فى سيمترية معروفة ومحددة لا يخرج عنها أحد سوى بعض الحالات الشاذة التى يستنكرها المجتمع بل ويرفضها.

وقد يكون من المستغرب فى ذلك الوقت على سبيل المثال أن يحب أحد أفراد طبقة بنتا من طبقة أعلى فإننا نجد أن الطبقة العليا ترفض هذا النسب وهذا طبيعى حسب العرف السائد لكن غير الطبيعى أن نجد أن أصحاب الطبقة الأدنى التى منها هذا الشاب ترفض هذا الزواج أيضا بل ويؤكدون فشله، لهذه الدرجة نجد أن الحدود العرقية التى تحكم الطبقات فى مصر قبل الثورة كانت معروفة ومنظمة بل وممنطقة ومقبولة نفسيا واجتماعيا.

كان فى مصر قبل الثورة ثلاث طبقات تؤمن كل طبقة فيها بحقوق الطبقة الأخرى وتعرف كل طبقة أيضا واجباتها التى تؤديها.

والآن نلقى نظرة تحليلية لكل طبقة فى مصر قبل الثورة..

### الطبقة العليا

كانت هذه الطبقة تتكون من رجال الأعمال الذين كانوا يملكون المصانع والشركات الكبرى وكذلك رؤساء الأندية المصرية وأصحاب الصحف ورؤساء الأحزاب وملاك الأراضى الذين قد تصل ملكيتهم أحيانا إلى آلاف الأفدنة.

وكانت هذه الطبقة تسيطر على وسائل الإنتاج المهمة وترأس الأحزاب المصرية التى كان لها دور مؤثر فى الحياة السياسية.

وتعيش هذه الطبقة بما أتيح لها من موارد فى بحبوحة من العيش وكانت لأفرادها جلساتهم الخاصة سواء فى الأندية أو جلسات السمر التى يعقدونها وكان أولادهم يلتحقون بالمدارس الفرنسية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت وبعض المدارس الإنجليزية.

أما ثقافة هذه الطبقة فكانت ثقافة ناعمة تتعلق بالموسيقى وحفلات الغناء والأوبرا المصرية وقراءة كتب الأدب الفرنسى والانجليزى والعالمى، أما عن سلوكيات الطبقة وقيمها فقد كانت كلها تتمحور حول الوجاهة الاجتماعية ولم يكن فيها ما يسئ فهى قيم ناعمة تنسجم مع رغد العيش لكن هذه الطبقة كانت تحمل هما كبيرا حيال بناء مصر الحضارى فكان منوطا بها دعم وسائل الإنتاج وتطويرها، فكانت طبقة منتجة رغم رفاهيتها بما تملك من موارد مالية غير أن ما كانت تمتلكه من مال كان نظيفا إلى حد بعيد فلم تكن تتاجر فى الممنوعات ولم يكن الفساد المالى يصل إليها لأن القوانين كانت صارمة من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت الحكومات المتتالية يتكون أفرادها من هذه الطبقة ولم يكونوا فى حاجة إلى ثراء غير مشروع يأتى من تسهيلات حكومية، لكننا لا ننكر أن هذه الطبقة مارست القليل من الظلم على الطبقات الأدنى لكنها أبدا لم تتجاوز حد التنكيل بها.

**الطبقة المتوسطة:**

لقد نشأت الطبقة المتوسطة مع بداية عصر التنوير فى مصر عندما أرسل محمد على البعثات العلمية إلى الخارج وبعد أن أقيمت جامعة القاهرة دخل أبناء هذه الطبقة إلى الجامعة وتخرج فيها الأطباء والمهندسون والمدرسون والمحامون والقضاة وغيرهم واستطاع هؤلاء أن يجدوا مكانا مرموقا فى المجتمع فأصبحوا عضد الدولة المصرية.

وعندما احتل أفراد هذه الطبقة كل أدوات الإنتاج فى المجتمع الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى، اكتمل تشكيل هذه الطبقة وأصبحت لها سماتها الخاصة التى تعبر عنها وكذا ثقافتها الخاصة بها، حتى سيطرت ثقافتها على المجتمع ككل.

وشارك خريجو الجامعة التجار وملاك الأراضى الصغار وضباط الشرطة والجيش فى تكوين سمات هذه الطبقة.

وكان للاستعمار الانجليزى اليد العليا فى تكاتف هذه الطبقة وتماسكها، حيث أسست هذه الطبقة وجودها من خلال مقاومة الاستعمار والحصول على الاستقلال، الأمر الذى وفر لها شرعية واسعة بصفتها الطبقة المثقفة القادرة على قيادة المجتمع وتحريك كافة الشرائح الاجتماعية الأخرى.

وإذا كانت هذه الطبقة قد حصلت على قبول شعبى واسع إبان مرحلة مقاومة الاستعمار فقد ساعد ذلك على سيطرة ثقافتها على المجتمع ككل.

لقد كانت الطبقة الوسطى فى مصر قبل الثورة ميسورة ماديا ومستنيرة عقليا وكان هذا يؤدى بالتالى إلى أرضية صلبة للبناء الديمقراطى وكذا البناء الحضارى، لأن هذه الطبقة قد ضمنت مؤازرة الجماهير لها من كل الطبقات فى كفاحها ضد الاستعمار ولا يخفى على أحد أن الطبقة العليا الحاكمة بوزرائها وحكوماتها كانت تستمد قوتها من الطبقة الوسطى لمؤازرتها ضد الاستعمار أو الملك.

والملاحظ هنا رغم أن مصر لم تكن بالدولة الغنية ضمن دول العالم الكبيرة ولكنها كانت دولة ديمقراطية فى الأساس ولولا وجود الاستعمار فى ذلك الوقت لكانت مصر قد تفوقت حضاريا على مثيلاتها من الدول ورغم ذلك كانت مكتفية اقتصاديا بخلاف كثير من دول العالم.

لقد ظلت الطبقة الوسطى فى مصر مسيطرة تماما بثقافتها على الطبقات الأخرى حتى بعد قيام الثورة وحتى أواخر السبعينيات إلى أن بدأت الثورة تفرز رجالاتها من طبقات أخرى.

### الطبقة الدنيا:

فى مصر قبل الثورة كانت الطبقة الدنيا متوفرة فى الفلاحين الذين يعملون بأيديهم دون امتلاك الأرض أو امتلاك أفدنة قليلة لا تتعدى أصابع اليد، هذا فى الريف أما فى المدن فكان العمال الحرفيون هم المكمل الثانى لهذه الطبقة.

كان أفراد هذه الطبقة مظلومين اجتماعيا فهم بعيدون عن الملكية الخاصة بهم وإنما يعملون بالأجر عند الطبقتين الأعلى، وكان الأجر بالكاد يكفى للحياة.

ولقد تعرضت هذه الطبقة على مر العصور السابقة إلى ظلم اجتماعى واقتصادى وسياسى ولكن كانوا محصنين بقيمهم الخاصة التى تمنعهم من الثورة على أوضاعهم ومن ضمن هذه القيم كان الدين الذى أخضعته ثقافتهم كعلاج نفسى لكل ما يواجهونه من إحباط من الطبقات الأخرى حيث وقر فى النفوس أن تفاوت الناس سنة إلهية فى اقتسام الرزق، وأن تفاضل الطبقات بحسب ما تملك من متاع الحياة وخيراتها أمر طبيعى، قصد إليه الدين بل صرح به القرآن الكريم وتساق إلى ذلك آيات القرآن الكريم (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم)، (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون)، (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون).

وعاشت الطبقة الدنيا منسجمة مع ظروفها الاقتصادية والاجتماعية راضية بقضاء الله.. وكانت ثقافتها خاصة بها لا تعلو لأكثر من طبقتهم فكان فنهم لا يتعدى المواويل الحزينة أو قصص البطولات الشعبية مثل أدهم الشرقاوى أو أبو زيد الهلالى حتى أفراحهم كان الغناء فيها من داخل البيئة يتحدث عن الحقل والمواشى، لكن الفن فى العموم كانت نبرته حزينة نظرا لما يصيبهم من فقر ومرض.

لكن المميز فى هذه الطبقة فى ذلك الوقت ولشدة ترسخ أوضاعهم الاجتماعية أنها كانت طبقة مستسلمة للطبقات الأخرى لكن لم يكن يمنع هذا الاستسلام الحقد فى النفوس وتمنى الخراب للطبقات الأعلى.

# هل نحن متخلفون..؟

**يقول فرويد:** « إن وعيك بالقضية هو دليل إدراكك لها وتجاوزك لحدودها » معنى هذا أننا متخلفون ولسنا جهلاء، ولكننا متخلفون بالنسبة لمن؟ وما هي مظاهر التخلف أصلاً؟ وما معنى أن أكون متخلفًا؟ ولماذا وكيف؟

**كلها أسئلة نريد الإجابة عنها!!**

« أنا هنا أتحدث عن مصر والمصريين دون سواهم، قد يشترك معنا آخرون في التخلف ولكن أسباب تخلفنا تختلف عن أسباب تخلفهم ».

المشكلة أن التخلف قد يفسر على أنه التخلف عن ركب الحضارة.. هذا ما يفهم من الوهلة الأولى.. ولكن!! إذا نحن نظرنا إلى موقعنا من العالم بدوله المتقدمة والأقل تقدمًا، والنامية والأقل نموًا، بل إذا نظرنا إلى دول تركب الأفيال ودول تصنع منازلها من الصفيح وأوراق الأشجار.. سوف نجد أننا أكثر منهم تخلفا كيف ذلك؟

ونعود إلى فرويد ليشرح العبارة من جديد فنحن نعي قضيتنا ونعلم أننا متخلفون ولكننا لا نستطيع إدراك هذا التخلف ولا نستطيع تجاوزه والعبور فوقه، إذن نحن نعلم ولكننا نجهل العلم في نفس الوقت، وهذا يدخلنا إلى تعريف التخلف ذاته، وكيف أننا أكثر تخلفا من بعض القبائل التي

يحكمها ساحر القبيلة وينظم شئونها.

## تعريف التخلف:

التخلف هو عكس التقدم أو هو التقهقر عن الآخرين أو الوقوف بينما يتقدم الآخرون، وكما يقاس التقدم حاليًا بالتطور العلمي أو الصناعي والزراعي والتجاري والاقتصادي وامتلاك أدوات الإنتاج لخدمة الإنسان في إنتاج مسببات الرفاهية للإنسان ذاته كذلك يقاس التخلف بفقدان هذه الأشياء ويمكن أن يقاس التقدم على نموذج الدول الغربية ودول جنوب شرق آسيا حيث دخلوا إلى عالم الفضاء الخارجي وعالم الجينات الداخلي.

ويقاس التقدم أيضا بمدى تمتع الإنسان في هذه المجتمعات بحقوق الإنسان وتحقيق الليبرالية الكاملة في جعل الإنسان مشروعاً مستقلاً متكاملاً، يتمتع بكل حرية في الخلق والابتكار ولا بد من ضمان المجتمع لكافة حقوقه في التعليم والعلاج والمسكن حتى وقت الفراغ..، فالتقدم في عالمنا المعاصر خطواته محتومة وأصبحت معروفة فهي: علوم فتصنيع فتهذيب للتقنيات، ولم يعد التقدم مرهونًا بالعلماء الفقهاء الذين يقصرون العلم على شرح النصوص ثم على حواش تلحق بالشروح فهذه أصبحت ثقافة الكلمة وثقافة الكلمة عندنا تختلف عنهم فالمسرحية عند شكسبير لا تلتمس كمالها عن طريق البناء المحكم فقط، بقدر ما تلتمسه في فوران التيار وجيشانه، فلا بأس من النقص ما دام العرق ينبض بالحياة من أول سطر إلى آخره ، أما الثقافة عندنا فهي استسلام وركود ومواويل وآلام وأحلام لا يمكن تحقيقها.

- فأنا متخلف إذن عندما ألجأ إلى التعميم في كل أمور حياتي.
- أنا متخلف عندما أعتبر نفسي مثلاً أعلى ينبغي الاقتداء به.
- أنا متخلف عندما أعتمد في ثقافتي على المخلفات الثقافية للآخرين.
- أنا متخلف عندما لا أقبل الاختلاف مع الآخر واحترم اختلافه معي.
- أنا متخلف عندما أنقل وظيفة عقلي إلى قلبي فأفكر بإحساسي وأتعلم بقلبي.
- أنا متخلف عندما أفقد هويتي وأنزع رداءها عني كارها لها وأرتدي جلباب ثقافة أخرى بدعوى أنها تقربني من الرب.
- أنا متخلف عندما أتصور أن العلم الديني هو العلم الحقيقي وأن علوم الحضارة علوم شيطانية.

- أنا متخلف عندما أصدق الأساطير وأشارك في صنعها.
- أنا متخلف عندما أعتقد أن السلف كله صالح أما الخلف فكله طالح وليس لي حق الاعتراض على ما قاله السلف لمجرد أنهم قالوه.

هذا هو التخلف الحقيقي الذي أصاب الإنسان المصري عندما نزع عنه هويته المصرية الأصيلة التي ارتبط بها لعشرة آلاف عام وصنع بها أعظم وأول حضارة في التاريخ تلك الهوية الرائدة التي صنع منها رجال الفقه الإسلامي عصيدة سوداء من دم وصديد الإنسان المصري وألقوا بها في جوف حمار ميت تركوه للغربان الصحراوية تنهشه حتى أتت عليه بدعوى أن أحد ملوكهم كان كافرًا. وأصبح المصري مثله مثل رجل « كا فكا » حيث يصور إنسانا أخذه النعاس واستيقظ ليجد نفسه خنفسًا ضخمًا، فكيف يسير، وعلى أي نهج يسلك هذا الإنسان الخنفس، بحيث يرضى عن سيره وسلوكه؟ أيجعل معياره حياة الخنفس أم يجعله حياة الإنسان؟ أنه لو فعل هذا أو ذاك تجاهل حالته الراهنة، فلا هو إنسان ولا هو خنفس بل هو إنسان خنفس. إذن فلا بد له من نظرة جديدة ومعايير جديدة فأخذته الحيرة واستبدت به الفوضى.

إن المصري لم يصبح بعد خنفس « كا فكا » فما زال يحتفظ بهويته المصرية القديمة فهي تسري في دمه وجيناته الوراثية ولا يمكن لألف وأربعمائة سنة هي زمن الغزو الثقافي العربي للهوية المصرية أن ينزع عنه عشرة آلاف سنة حتى لو كان الدين هو وعاؤها لأنه في الحقيقة كان قبل الإسلام متدينا موحدا وعرف الله قبل البشرية جمعاء.

## قيام الثورة

جاءت ثورة 23 يوليو بأفكار ثورية تنسجم مع الطبقة الوسطى التى طالما طالبت بالاستقلال والتحرر من الملك الذى لم يكن فى رأيهم مصريا حقيقيا.

لقد غازلت الثورة فكر الطبقة المتوسطة فكسبت تأييدها وتمنت الخير فيها لبناء دولة متحضرة تنافس أوروبا وأمريكا، لكن هذه الطبقة لم تكن على وعى كامل بالأمراض الثقافية التى حملها رجال الثورة معهم لتكون مشروعهم القادم.

وأنا هنا لست محللا للنظام السياسى الذى قادته الثورة أو للنظام الاقتصادى أو الاجتماعى الذى اتبعته فهذا ليس مجالنا، ولن أناقش سلوكيات رجالاتها أو تصرفاتهم فكم من الكتب تناولت ذلك، ولكن ما يهمنى هو ما قام به رجال الثورة من أفعال أدت إلى تآكل الطبقة المتوسطة والقضاء على ثقافتها وأثر ذلك كله على ما نحن فيه الآن من تخلف وانحطاط وأسوأ ما فعلته الثورة على النحو التالى:

## التعليم المجانى:

بعد قيام الثورة أعلنت أن التعليم حق لكل مصرى دون تمييز، وأن الفقر لا ينبغى أن يكون عائقا نحو تعليم أبناء الطبقة الفقيرة. وكان هذا الحق معلوما قبل الثورة وأعلنه طه حسين عندما كان وزيرا للتعليم، وكان قبلها التعليم حقا لكل مصرى ودون تمييز أيضا ولكنه لم يكن مجانيا، بل كان بنقود يدفعها طالب التعليم أما الفقراء فكانوا يحصلون على منح مجانية إذا كانوا من المتفوقين ولكن الثورة جاءت وألغت هذا الشرط وأصبح التعليم مجانا بدون نقود يدفعها طالب العلم بل لم تكتف بذلك وإنما أصدرت قانونا بمعاقبة ولى أمر الطالب الذى لم يدخل ابنه أو ابنته المدرسة.

قد يسأل سائل وما الخطأ فى هذا؟ أليست قوانين الأمم المتحدة تدعو لذلك أليس التعليم كالماء والهواء؟ أليس التعليم هو أداة تقدم الأمم والشعوب؟!!

هذا صحيح تماما ولكن.. هذه الطبقة الدنيا لم تكن مهيئة فى الأساس لدخول طبقة أعلى منها بل رأينا أكثر من 80٪ من أولياء الأمور يرفضون دخول أبنائهم إلى المدارس والذين دخلوا قهرا تسربوا بعد ذلك بعد سنتين أو ثلاث سنوات من دخولهم المدرسة. لم يكن أفراد هذه الطبقة فى حالة ثقافية لمنح أولادهم هذه الفرصة وبهذه السرعة خاصة أنهم لم يكونوا يملكون ثمن ملابس المدرسة ولا ثمن أجهزة التعليم وأدواته.

ورغم أن الحكومة كانت تصرف وجبات أكل للتلاميذ لتشجيعهم، فإن التسرب من التعليم كان عاليا.. لماذا؟ لأن الحالة الاقتصادية لأفراد هذه الطبقة كانت لا تسمح لأبنائها بهذه الرفاهية على حد اعتقادهم.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى عندما حاولت الثورة توزيع الأراضى على الفلاحين، كان هؤلاء فى حاجة إلى أبنائهم لمساعدتهم فى فلاحة هذه الأرض.

نفس الحال كان عند العمال فى المدن فكان رجل الصنعة العامل يُعلم أبناءه حرفته وهكذا قاومت هذه الطبقة فى البداية إلحاق أبنائها بالتعليم لكن التطلع الطبقى إلى الأعلى نجح فى دخول أفراد هذه الطبقة إلى التعليم بأعداد هائلة حتى أصبحت المدارس تعمل فترتين بل ثلاث أحيانا لاستيعاب كل هذه الأعداد.

نعود مرة أخرى إلى مناقشة ما هى الأخطاء فى تعلم هذه الطبقة؟!!

أود بأن أصرح هنا أن هذه الطبقة لم تكن معدة بطريقة صحيحة لإلحاق أبنائها بالمدارس ثم الجامعات بعد ذلك.. والإعداد الذى أقصده هنا هو الإعداد القيمى والنفسى والثقافى.

إن عمل أفراد هذه الطبقة بعد ذلك كأطباء ومهندسين ومدرسين وفنانين ومشاركة الطبقة المتوسطة فى وسائل الإنتاج كان يحتاج إلى تعليم من نوع آخر ينصب أساسا على تغيير الكثير من السلوكيات التى ترتبط بقيم المجتمع التى رسختها الطبقة المتوسطة وأصبحت عرفا سائدا.

والمعروف اجتماعيا أن الطبقة الدنيا ومن شدة الطغيان الذى وقع عليها تتمتع بقيم حاقدة على من هى أعلى منها فى السلم الاجتماعى.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن الإصلاح الإقتصادى الذى قامت به الثورة لصالح هذه الطبقة لم يؤت ثماره بل اتجه إلى الإستهلاك لتعويض الحرمان الشديد الذى حرمت منه هذه الطبقة على مر العصور، وكنت أتصور أن يكون التعليم الممنهج هو الطريقة الوحيدة للنهوض بهذه الطبقة كإقامة معاهد تدريب مهنية وإعداد كوادر خاصة من أفراد هذه الطبقة لتخريج عمال مهرة فى كل مجالات الصناعة والزراعة كمهن مساعدة حتى يمكن الارتفاع بهؤلاء إلى مستوى اقتصادى أعلى يقتربون به رويدا رويدا من الطبقات الأعلى فيحدث الاحتكاك الثقافى بينهم. ولكن هذا لم يحدث ولكن الذى حدث هو صعود أفراد هذه الطبقة المليئة بالأمراض الاجتماعية إلى الوظائف العليا التى تتمتع بقيم خاصة فى ذلك الوقت كإتقان العمل والتفانى فيه وعدم قبول الرشوة وتحرى الدقة والالتزام المهنى المطلوب.

# العراق والخليج

تفجر البترول فى دول الخليج والعراق وليبيا وبدأت هذه الدول فى بناء مشروعها الحضارى واحتاجت لتحقيق هذا الهدف إلى الملايين من العمال فى كل المجالات وكذلك الوظائف المتخصصة وفى نفس الوقت كانت مصر تعانى من الضائقة الاقتصادية بسبب تفكك دولاب العمل على كل المستويات وكذلك كثرة الحروب التى تسبب فيها رجال الثورة فانهارت مصر اقتصاديا ولم يجد أبناؤها فيها ما يحقق أحلامهم فى زوجة ومسكن ومأكل فخرج الملايين من الطبقة الدنيا مشمرين عن سواعدهم للسفر إلى هذه البلاد، حتى أن دولة العراق كان يعمل فيها من أبناء هذه الطبقة خمسة ملايين، أما ليبيا فوصل العاملون المصريون فيها إلى ثلاثة ملايين من أبناء هذه الطبقة أيضا، أما دول الخليج فاقترب العدد فيها إلى 6 ملايين مصرى.

كانت نوعية المتجهين إلى هذه الدول من الطبقة الدنيا فى الغالب أما الطبقة المتوسطة فلم يذهب منها إلا من تعاقد من قبل الحكومة والبعض الآخر فضل البقاء فى مصر تمسكا بقيمه التى تمنعه من ترك زوجته وأولاده إلى المجهول فى المقابل من جهة الحكومة كانت عائدات العمالة المصرية فى الخارج مع بداية الثمانينيات مهولة وبالمليارات من العملات الأجنبية مما كان له الضرر البالغ على مصر من ناحيتين:

**الناحية الأولى:** أن الحكومة بعد أن وصلتها عائدات العاملين بالخارج بهذه الكميات الهائلة تقاعست عن بناء مشروع حضارى مصرى فى الصناعة والزراعة فلماذا نفعل ذلك ولا يوجد عجز فى ميزان المدفوعات والأموال تنهمر من خارج الحدود؟!

**الناحية الثانية:** أن دولاب العمل الإدارى فى مصر أصابه التفكك والانهيار بسبب السياسات الخاطئة للحكومة، وكان بيع شركات القطاع العام طريقا لانتشار الفساد فى النظام الإدارى للدولة وصار النهب والسرقة والرشوة عوامل جذب لكل طبقات الشعب وجاءت معهم قيم جديدة تضاف للقيم السلبية التى أفسدت منظومة القيم القديمة للمصريين.

## عودة العمالة المصرية

قلنا أن حوالى 13 مليون مصرى سافروا إلى الدول العربية بحثا عن الرزق وكان 95٪ من هؤلاء من الطبقة الدنيا المصرية، عاد هؤلاء وهم يحملون معهم شيئين أثرا تأثيرا شديدا فى مصر وساعدا الطبقة الدنيا على فرض ثقافتها على المجتمع.

**الشىء الأول:** هو المال فقام هؤلاء ببناء البيوت التى لم تكن من ضمن ثقافتهم محاولة امتلاكها فبنوا البيوت واشتروا الأراضى الزراعية وكذلك أراضى البناء.. وبدأ الكثير منهم يبرع فى التجارة والسمسرة.

**الشىء الثانى:** حمل هؤلاء معهم فى العودة ثقافة الشعوب التى عملوا فيها وكانت أكثر هذه الثقافة تأثيرا هو ما سموه بالالتزام الدينى.. فعادت النساء من دول الخليج بالحجاب والملابس الخليجية والأكلات الخليجية حتى إن بعضهم كان يتحدث بطريقة خليجية أو ليبية أوعراقية.. وكذلك الفنون فبدأنا نسمع الأغانى الخليجية فى سيارات الميكروباص والمقاهى.. وانتشرت الملابس الخليجية بما فيها الحجاب والنقاب.

من ضمن صفات الطبقة الدنيا أنها تدين بالولاء لصاحب الفضل أو النعمة الذى يحقق لها مصلحة مادية لذلك رأينا العائدين، وقد أصبحوا مسخا من الشعوب التى عملوا فيها بل زادوا عليهم لكن أخطر ما جاءوا به هو الدين الشكلى الذى يبعد عن جوهر الدين ويتمسك بمظاهره.

## انهيار الطبقة الوسطى

دائما ما كانت الطبقة الوسطى تسعى إلى تحقيق تقدم حضارى لمصر يضعها فى مصاف الدول العظمى. ودائما كانت أحلامها فى الاستقلال والتحرر من الاستعمار هى شاغلها الأول، وعندما تحقق لها الاستقلال والتحرر من الانجليز والملك، فوجئت بخيبة أمل كبيرة بعد تعرض مصر لحروب لا ناقة لها فيها ولا جمل إنما كانت بسبب غرور قائد ثورتها وتحقيق طموحاته الشخصية على حساب المصريين.. ووقفت الطبقة الوسطى موقفا شجاعا فى حربه مع إسرائيل حتى تحقق النصر ولكن هذا النصر لم يستطع أن يمحو الشرخ الذى أصاب قلوب هذه الطبقة فأصابها الإحباط وبدأت فى الانزواء ومحاولة الهجرة إلى بلاد العالم الغربى حيث الحرية الحقيقية هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن الطبقة الوسطى أصابها الشعور بأنها «كالأحجار الكريمة فى مستنقع آسن» بعدما تمت عسكرة السلطة ومعاداة التعددية الحزبية ورفض التداول للسلطة وحروب لا معنى لها وغيبوبة دينية وتراجع أخلاقى مجتمعى وصعود الطبقة الدنيا وصعود الثقافة الشعبوية كل هذا فى ظل عهد متغير احتضن تاريخ إرث الشمولية السيئة ومستقبل الديمقراطية الصعب وتفاقم العجز فى الإنتاج، وارتفعت البطالة وتعاظم عدد المهمشين وتحول المجتمع إلى سوق عشوائى فى أيدى سدنته من الفاسدين فتوزع الناس بين ملتهم للثروات ويصدر ريعها إلى بنوك أوروبا وفاسد يعبث بكل ما تطوله يداه دون خجل أو ضمير وبين ما يبحث عن الخلاص فى معتقدات تريد للأموات أن يحكموا الأحياء فتخلت الطبقة عن استنارتها بعد أن تخلت عن اقتصادها وبدأت تشارك الثقافة الجديدة قيمها القادمة من أسفل.

ومع سياسة الحزب الواحد وسيطرة هذا الحزب على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمصريين ، حيث لم تكن هذه السيطرة سهلة فى وجود طبقة وسطى قوية تقود المجتمع باستنارتها، فقد استعان الحزب الواحد بأعوان جدد تعلموا فى الجامعات المصرية هم أبناء الطبقة الدنيا التى بدأت تكتسح اقتصاديا وسائل الإنتاج، ووجد الحزب الحاكم فى أفراد هذه الطبقة الميول التطلعية فاستعان بهم فى كل مجالات الحياة خاصة السياسية والاقتصادية فحصلوا على مكاسب لا حدود لها بسبب قدرة أفراد هذه الطبقة على التلون والتسلق وصارهناك اتفاق غير معلن يضمن التعاون بين هؤلاء وبين الحزب الحاكم، ذلك الحزب الذى مد جسوره إلى كل الأماكن الحساسة التى تضمن له السيطرة الاقتصادية على أفراد الشعب كما تضمن له المؤازرة لمن يريد أن يحصل على جزء من الغنيمة.

ولم يقف تدهور الطبقة الوسطى عند المستوى الاقتصادى فقط ولكنه انتقل أيضا إلى بنية القيم الخاصة بالطبقة الوسطى وهذا كان الخطر الأكبر على مصر كلها.

وبعد أن توارت المشروعات القومية فى مصر وخروج الاستعمار وانهيار منظومة القيم السائدة فى المجتمع لم تعد الطبقة الوسطى قادرة على قيادة المجتمع وصناعة الأفكار والتوجهات السياسية والأيدلوجية على السواء، ففى ظل التدهور المادى فقد أعضاء هذه الطبقة قدرتهم على الحفاظ على وضعيتهم المجتمعية حتى أصبح أعضاء هذه الطبقة محل تهكم الطبقتين الأخريين الدنيا والعليا على السواء ووضح ذلك فى الدراما التليفزيونية التى تقدم وتحمل أفكار الطبقة الدنيا.

كان للدولة دور واضح فى إضعاف هذه الطبقة والاستعانة بالطبقة الدنيا بدلا منها لأنها سهلة الاقتياد ويمكن السيطرة عليها بالرشاوى المادية التى تملك عليها لبابها.

## دور التيار الدينى فى انهيار الطبقة الوسطى

نشط تيار الإسلام السياسى بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد واستطاع استقطاب الطبقة الدنيا التى يشكل الدين عندها دوجما خاصة يستخدمها كشكل من أشكال التميز ضد الآخرين. واستطاع هذا التيار أن يقنع البسطاء وأفراد هذه الطبقة الذين صعدوا فى المجتمع بعد مجانية التعليم – استطاع اقناعهم بأن البعد عن الإسلام هو الذى أدى إلى السلام مع العدو، وأن البعد عن الإسلام هو سبب تخلفنا الحضارى وأن البعد عن الإسلام هو سبب تراجع مصر فى قيادة العالم العربى وفى النهاية فإن الإسلام هو الحل.

ومع عودة العمالة المصرية من الدول التى ذهبت إليها استطاع التيار الإسلامى أن يجند خطاباً دينياً ينسجم تماما مع ما حمله العائدون من ثقافة دينية – أو يعتقدون أنها كذلك – تحمل الفكر الوهابى الذى يهتم بالمظهر دون الجوهر، ثم نشط رجال الدين يقودهم« الإخوان المسلمون» مع أهل السنة والجماعة وكذا الجماعات الإسلامية وكل التيارات الأصولية فى محاولة السيطرة على المجتمع المصرى بهدف أسلمة المجتمع.

فى البداية تصدى لهم بعض الرموز الباقية من الطبقة المتوسطة، ولكن سرعان ما خفتت هذه الأصوات بعد ما لاحظت أن هناك تعاونا واضحا بين الحزب الحاكم وبين تيار الإسلام السياسى، وكأن هناك اتفاقا غير معلن بين الطرفين بتقسيم مصر بينهما، الحزب الحاكم وحكوماته لها السياسة والحكم أما التيار الدينى فله الشارع المصرى يفعل به ما يريد.

**إن أهم ما يريده التيار الدينى شيئان:**

**أولهما**: السيطرة الاقتصادية وبيع منتجهم الدينى لتحقيق المكاسب المادية ولم تتحقق هذه السيطرة إلا بتغييب المصريين ونشر ثقافة الموت على ثقافة الحياة وسيطرة فكرة الحرام والحلال، فهذا سيحقق لهم بيع منتجهم الدينى المتمثل فى الكتب الدينية والملابس التى يدعون أنها إسلامية كالحجاب والنقاب والعباءات والاسدالات والجلاليب الرجالى القصيرة وحتى السراويل.. وكذا السيطرة على القنوات الفضائية وبيع منتجهم الدينى المتمثل فى البرامج الدينية والفتاوى وغيرها.. بالإضافة لجمع التبرعات باسم الإسلام لتمتلئ جيوبهم.

**ثانيهما**: هو استخدام هذه الطبقة المغيبة كجنود جاهزين فى حالة محاولة هذا التيار أن يسيطر على الدولة ويحكمها باسم الإسلام وكان هذا هو الهدف الثانى الذى يسعون إليه بمعني السيطره دينيا على عقول المصريين ليكونوا جنودا للثورة الإسلامية التى يخططون لها.

لذلك كان من المهم لرجال تيار الإسلام السياسي استبعاد الطبقة الوسطى المستنيرة وإضعافها اقتصاديا وملاحقة رموزها فى المحاكم بدعوى الكفر مرة والردة مرة أخرى وكذلك ملاحقة الكتاب التنويريين والأفلام السينمائية الجادة لنفس الهدف.

## الحالة المصرية الآن

فى أى طرح لحالة وطن ما يتم الاهتمام بالحالة السياسية ثم الاقتصادية وكذا الاجتماعية مرورا بالتعليم والصحة وأدوات الإنتاج وغيرها.

لكن سيكون اهتمامي فى الأساس منصبا على منظومة القيم الحالية التى سيطرت على المجتمع المصري في العقدين الماضيين .

هذا التوجه في بحث الحالة المصرية يعتمد أساسا على افتراضية ههمة وهي أن تردي المنظومة القيمية هو السبب الأكثر وضوحا في انهيار باقى النشاط الحضاري في مصر من سياسة واقتصاد وتعليم وصحة.. إلخ بالإضافة إلي أسباب أخري سوف نتناولها بالتفصيل لاحقا.

ويبقى السؤال الملح وهو ما هي حالة المنظومة القيمية للشعب المصري الآن؟!

المتابع والمدقق لحركة الحياة فى مصر يدرك دون مشقة أن المجتمع المصري يعيش حالة إحباط هائلة على كل المستويات أدي بدوره إلى احتقان شديد تولد عنه عنف مضاد، وإذا أنت سرت فى أحد شوارع المدن المصرية كلها سوف تلاحظ الاكتئاب الذي يظهر على وجوه المصريين سواء كانوا يسيرون على أقدامهم أو يركبون وسائل المواصلات أو فى سياراتهم الخاصة، ومن النادر أن نجد وجها مبتسما بين الكبار أو الصغار، وإذا أنت رأيت مجموعة من الشباب الصغير فى حالة مرح فإن مرحهم لا يعبرون عنه بالغناء أو الرقص أو التنكيت أو حتي الحوار الضاحك وإنما تجدهم يمرحون بتبادل السباب أو التضارب بالأيدي فهو مرح ممزوج بالكبت والاحتقان، وإذا أنت جلست فى جلسة سمر وهي نادرة هذه الأيام فلن تسمع فيها نكتة جديدة وإنما سوف تسمع نكاتا قيلت في الستينيات أو الخمسينيات.

هذا ببساطة ما يشعر به كل مصري ومصرية احتقان– اكتئاب – عدم شعور بالأمان – عدم ثقة في الآخرين وأيضا في المستقبل.

والآن نفصل ما يحدث فى نشاط المصريين على كل الأصعدة.

## عدم إتقان العمل:

كان إتقان العمل هو السمة التى تميز المصرى عن غيره من الشعوب المجاورة والبعيدة، الآن نرى أن آخر الاحصائيات تقول أن المصرى يعمل لمدة 27 دقيقة فقط فى اليوم حيث المفترض أنه يعمل ثمانى ساعات كاملة ،هذا على المستوى الحكومى ونقصد كل من يعمل فى الحكومة ويقدر عددهم 5.5 مليون فرد أما على مستوى الحرف فإن المهن الحرفية التى يقوم بها عمال فى مشاريعهم الصغيرة كالميكانيكا أو السباكة والبناء وغيرها فإن العامل فى هذه المهن لا يؤدى عمله على الوجه الصحيح وحيث يفتقد الخبرة والتدريب لمعرفة أسرار مهنته وينصب كل همه على أخذ أجر على عمل غير كامل وبدون ضمير حى فقد يصلح العطل فى السيارة أو الثلاجة أو التليفزيون ولكنه يضع عطلا آخر أو يمهد لعطل يحدث بعد فترة لاستغلال صاحب الحاجة.

وعلى المستوى التجارى فإن أصحاب المشاريع الصغيرة لا يعاملون العميل معاملة لائقة بالإضافة إلى تقديم خدمة سيئة ونجد هذا فى المطاعم والبقالات ومحلات قص الشعر والورش الصغيرة، ولا تراعى هذه المحلات والعاملون فيها شروط النظافة والأمان.

فى الماضى كان العميل إذا دخل مطعما أو بقالة أو ورشة كان صاحب العمل أو العامل المنوط بخدمته يحمد الله لأنه قصده لتلقى الخدمة أما الآن فإن التجهم هو الذى يلاقيه العميل رغم أنه سيدفع مالا مقابل الخدمة التى تؤدى إليه، ومن السهل أن نجد أصحاب هذه الأماكن يفتحون الراديو على القرآن الكريم طوال النهار ولا يتحدث إلا ويستخدم بعض آيات القرآن أو الحديث ورغم ذلك يسرق العميل ولا يؤدى له خدمة جيدة.

إن عدم اتقان العمل قد يكون مفهوما عند موظفى الدولة نتيجة الأجر المتدنى، ولكن ما عذر أصحاب المشاريع الصغيرة فى عدم اتقان العمل عندهم ومراعاة الضمير فى تقديم خدمة جيدة.

ويمكن أن نخلص من هذا أن عدم اتقان العمل عند المصرى أصبح ثقافة.

**ازدواج المعايير:**

أن الشفافية كقيمة كان يتحلى بها المصرى ، فقد كان يعبر عن نفسه بمعيار واحد سواء كان غنيا أو فقيرا، صاحب سلطان أو فردا عاديا، لكن ما يحدث الآن فإننا نرى عدة أقنعة لرجل واحد وعلى كل المستويات نجد هذا عند المسئول وعند الصحفى ورجل الإعلام والطبيب والمهندس والعامل والفلاح، المرأة والرجل حتى الأولاد الصغار ولاعبو الكرة والفنانون ، ازدواج المعايير أو قل رباعية المعايير صارت نهجا وممارسة يومية لمعظم المصريين دون خجل أو وجل أو دون الخوف حتى مما يعرفونهم على حقيقتهم.

هذا الازدواج أدى إلى الكيل بمكيالين فى تصرفات الفرد حتى رب الأسرة وربة البيت ويقلدهما الأبناء والبنات.

**التمسك بالمثل الأعلى:**

انتشار الخطاب الدينى العنيف فى جميع وسائل الإعلام وتصوير صحابة رسول الله «ص» كمعصومين والالحاح من خطباء المساجد على التشبه بالسلف الصالح، جعل المواطن المصرى يحاول الظهور مقلدا للسلف بأنه لا يقل عن السلف فى شىء حتى أصبح الجميع يتحدث فيما ينبغى أن يكون لا فيما هو كائن وأصبح كل مواطن يحاول الظهور بأنه مثالى فى تصرفاته حتى أصبح التبرير هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من الأخطاء ، ونادرا ما تجد شخصا رجلا كان أو امرأة يعترف بأنه أخطأ، وإذا اختلف شخصان أمامك فسوف تكتشف أن كلا منهما يعتقد أنه صواب ويلقى التهمة على الآخر وسوف تجد هذا ليس على مستوى الشارع فقط بل فى كل المنتديات والنقاشات سواء على مستوى الأسرة أو العائلة أو الجيران أو حتى فى الندوات الثقافية التى تجمع نخبة المجتمع المثقف وكذا فى وسائل الإعلام المقروءة والمرئية، حتى اننا نجد أن بعض القنوات الفضائية قد استعذبت هذه الثقافة فأكثرت من برامج التوك شو التى لا تحتوى إلا على حوار الطرشان فالكل يصرخ بأنه على حق ويتهم الآخر دون دليل أو مصداقية أو تحليل علمى.

حينما يعتقد الجميع أنهم مثاليون فهذا يعتبر مرضا اجتماعيا يخرجهم من دائرة البشرية للحصول على صفة من صفات الله رغم أنهم بسلوكياتهم هذه لا يصلون إلى البشر الأسوياء على أقل تقدير.

**التفكك والعنف الأسرى:**

كان ما يميز المصريين على مر التاريخ هو التماسك الأسرى، وكما قلنا فإن المصريين هم أول شعوب الأرض استقرارا فى مكان واحد حول نهر النيل وكانت الأسرة فى هذا المجتمع تتمتع بقيم صخرية لا يمكن انهيارها، حتى إن المصريين فى بحثهم عن الله قبل الأديان السماوية وبعد تعرفهم عليهم ومارسوا صلواتهم وعبادتهم، قد شعروا بحيرة شديدة فى أن أفراد الأسرة خاصة الأب والأم والجد والجدة يموتون دون أن يروهم ثانية، ولشدة ارتباط أفراد الأسرة بعضهم ببعض ظهرت عندهم فكرة الحياة الأخرى ووضعوا فيها مخزونهم الثقافى القيمى فتبعوها بالحساب والثواب والعقاب فى الآخرة ووضعوا لذلك مجموعة قيم تدخلهم الجنة وتبعدهم عن النار وتشمل 42 قيمة منها على سبيل المثال أنه لم يلوث ماء النيل ولم ينظر إلى زوجة جاره ويكرم والديه ولم يخذل طفلا احتاج مساعدته ولم يكذب أو يسرق، وهكذا 42 قيمة عالية وسامية لم تصل إليها أى حضارة أخرى.

إن وجود الحياة الآخرة عند الإنسان المصرى كان ضرورياً ليرى والده وجده وجدته الذين ماتوا مرة أخرى، إلى هذه الدرجة كانت الأسرة المصرية أشد تماسكا وصلابة.

ما نراه الآن على النقيض تماما لأن رب الأسرة فقد كثيرا من مكوناته الشخصية التى تشعر أفراد أسرته بالأمان الاقتصادى والاجتماعى فى نفس التوقيت ازدادت الزوجة أو المرأة فى المكانة فقد حصلت على العلم والعمل والمال دون إعداد جيد لهذا الدور المستقبلى فزادت أسلحة المرأة ونقصت أسلحة الرجل فبينما كان الرجل يعامل امرأته باحترام كاف ويعطيها حقوقا مساوية له رغم جهلها وعدم قدرتها على العمل مكتفيا بكونها أنثى وأماً لأولاده، فظهر الخلل بعدما قويت المرأة وضعف الرجل لأنه لم تحدث تهيئة لهذا التطور الاجتماعى.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انتشرت العدوى داخل المجتمع ككل من الهبوط الأخلاقى والقيمى فلم تعد الأسرة هى الوحدة الأقوى فى المجتمع.

انتشر العنف داخل الأسرة وظهرت جرائم جديدة تماما على المجتمع المصرى كالاعتداء على المحرمات وقتل الأب والأم وقتل الأولاد وكلها لأسباب غير منطقية فالكثير منها حدث بسبب الاحتقان المجتمعى والغيبوبة الثقافية وأسباب أخرى كثيرة سيأتى الحديث عنها بتوسع ، فنحن هنا نرصد الظاهرة فقط أما الأسباب فهى جوهر هذا الكتاب.

## فقه المصلحة

فقه المصلحة هو ثقافة جديدة غمرت المجتمع المصرى بكل طوائفه فأصبح الجميع يتمحور مشروعه المستقبلى حول المال ولا يهمه إذا كان الحصول على هذا المال بطريقة مشروعة أم غير مشروعة فوجدنا حتى النخبة ممن بيدهم مقاليد السلطة سواء على مستوى الوزراء أو نواب الشعب وكذا قادة الحكم المحلى ومديرى الشركات والمؤسسات حتى مديرى المدارس والمستشفيات وكذا كل من بيده سلطة يحاول تحقيق الثراء بدون وجه حق ثم انتقلت العدوى إلى رجل الشارع والمواطن الذى لا حول له ولا قوة الكل يحاول تحصيل المال بطريقة غير شرعية حتى لو غش الطعام أو الدواء.

وانتشرت الرشاوى بين كل طبقات المجتمع وأصبح الفساد يزكم الأنوف حتى امتلأت أروقة المحاكم بالقضايا من كل لون وصنف. ولم يتم الاكتفاء بذلك بخصوص المال ولكن رأينا طريقا آخر لفقه المصلحة حتى وصل إلى النخبة الإعلامية والثقافية فوجدنا النفاق يملأ وسائل الإعلام وخطب النخبة سواء كانت سياسية أو إعلامية تزيف الحقائق إما للنفاق أو بهدف الحصول على منصب أو سلطة.

إن فقه المصلحة أصبح هذه الأيام ثقافة منتشرة على كل المستويات حتى وصلت لأصغر وحدة فى المجتمع وهى الأسرة فنجد الابن يحقق مصالحه عن طريق الكيد لأخوته أو لأفراد الأسرة.

إن الحصول على ما هو ليس من حقه أصبح ثقافة اُخترِعت لها أمثال وأغان وأفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية، إنها ثقافة هذا العصر.

## نظرية المؤامرة

نظرية المؤامرة تسيطر الآن على كل أفراد المجتمع المصرى بل أجزم أنها تسيطر على العالم العربى والاسلامى ولكن لأنى مهتم بمصر أرى أن هذه النظرية أصبحت قاسما أعظم فى مسألة الدفاع عن النفس أو عن الموقف السياسى أو الإعلامى وغيره.

هذه النظرية أخذت جذورها من فكرة المثالية التى تحدثنا عنها سابقا وبإضافة المؤامرة إليها فإنها أصبحت تتلخص فى «اننى مثالى ولكن الآخرين يتآمرون ضدى».

تلك النظرية نسمعها يوميا فى المجالين السياسى والإعلامى ونكاد نراها يوميا تتردد فى أجهزة الإعلام بدون توقف وبإلحاح فى الدفاع عن مواقف مصر السلبية تجاه المشاكل الخارجية أو الداخلية ثم القضايا الخارجية سواء كانت فكرية أو ثقافية نجد كل طرف يتهم الآخر بالتآمر عليه وبدون أى تحليل للمواقف، بل والأغرب من ذلك أن الاتهام يلقى بعنف شديد وبثقة كاملة رغم أن الاتهام قد يكون خاطئا فى الأساس.

أما على المستوى الثقافى فإن التيارات الثقافية فى المجتمع تتبادل الاتهامات للتيارات المعارضة أو فيما بينها للدفاع عن مواقفهم حتى لو كانت سلبية نفس الشىء فى الفن والرياضة وبين رجال الأعمال والجهات المانحة للتراخيص، الأخطر من كل ذلك هو انتقال هذه النظرية إلى الجماهير فاستخدموها لتبرير الفشل وعدم السعى وقصور الفكر.. حتى دخلت هذه النظرة إلى مستوى الأسرة بين الأب والأم والأولاد ومن السهل أن نجد تلميذا أو طالبا يتهم أستاذه بالتآمر عليه أو نجد عاملا يتهم رئيسه أو زميله.

إن نظرية المؤامرة أصبحت كالماء والهواء فى دفاع الإنسان المصرى عن فشله وتبرير أخطائه سواء كان مسئولا أو موظفا أو إعلاميا أو مثقفا أو رب أسرة وأصبحت إحدى أكبر الأمراض الاجتماعية فى مصر.

# الخطاب الديني

أعتقد أن الخطاب الدينى فى مصر منذ الثمانينيات يشكل 70٪ من أسباب التدهور القيمى والسلوكى فى المجتمع المصرى، ذلك لأن الخطاب يحمل ثقافة بعيدة تماما عن القرآن الكريم، والسبب فى ذلك سوف نتناوله حين الحديث عن أسباب التدهور القيمى عند المصريين، لكننا هنا نرصد فقط الحالة المصرية الآن وما وصل له الخطاب الدينى من سيطرة كاملة على عقول وأفئدة وسلوك المصريين وقيمهم السائدة الآن، وسنرصد الآن بعض هذا التأثير.

**فى العمل:**

انتشرت الأقاويل الدينية فى الفترة الأخيرة من قبل شيوخ الفضائيات بل وبعض ألوان الفنون الرديئة وكذا ما يكتب فى الصحف، تتمحور كلها على أن الرزق بيد الله وأنه سوف يأتيك ولو كنت جالسا فى مكانك أو بدون مجهود يذكر فهو سبحانه وتعالى مقسم الأرزاق يعطى من يشاء ويمنع عمن يشاء.

وتكرار الإلحاح على هذا المعنى وجد راحة عند المصريين على كل اختلافات منهم لأنه يعتبر مبررا شرعيا للكسل وعدم الاجتهاد فى العمل واتقانه كما أنه مبرر كاف لما يصادفه من احباطات يومية يسببها عدم انتظام دولاب العمل فى كل الإدارات فى مصر.

رأينا هذا واضحا وربما مفهوما للعامة فى ملاعب كرة القدم فالفائز يقول انه فاز بإرادة الله والمهزوم يرجع فشله لإرادة الله أيضا، حتى إن بعض اللاعبين إذا سألتهم أجهزة الإعلام لماذا لم تحرز أهدافا منذ مدة طويلة فإنه يقول إن الأهداف رزق من الله والله لم يوفقنى بعد.

هؤلاء اللاعبون نسوا التدريب وأهملوه ولم يقبلوا عليه بحماس احترافى يسمح لهم باللعب الجيد ولأنهم لا يستطيعون بذل الجهد أكثر من ذلك فإنهم يبررون تقصيرهم فى العمل بأنه إرادة الله ونفس الشىء يقال عن عدم الرغبة فى الطموح وتحقيق مجد خاص بهم ونجاح يحقق لهم السعادة النفسية وهذا ما رأيناه فى عودة اللاعبين من أوروبا يجرون أسمال الخيبة والندم أثناء عودتهم.

ومن ناحية أخرى فقد تسبب هذا الخطاب الدينى الملح باستمرار فى أجهزة الإعلام والمساجد وحتى الكنائس فى تقاعس الأفراد عن الخلق والابتكار فى العمل والتجديد فى المهنة التى يمتهنونها.

## المرأة فى الخطاب الدينى:

أصبحت المرأة هى محور 90٪ من الخطاب الدينى فقد حولها هذا الخطاب من إنسانة إلى أنثى ومن أنثى إلى جسد ومن جسد إلى ما تملكه بين فخذيها.

وهذا الاختزال لإنسانية المرأة حولها إلى مسخ يشبه الإنسان ولكنه فقد إنسانيته تحت نصوص وأحاديث وقصص تراثية لا تنتمى إلى جوهر الدين وإنما تنتمى إلى ثقافة جديدة بعيدة تماما عنه.

إن العنف الواقع على المرأة المصرية من الخطاب الدينى حول المسألة القيمية وحصرها فى المرأة فقط.. ملابسها، طريقة حديثها، عملها، تعاملها مع الرجل سواء كان زوجا أو زميلا فى العمل، صوتها، شعرها، وهكذا.

أصبح كل ما فى المرأة عورة وكل تصرفاتها حرام فهى محكومة بملابس واسعة تغطيها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وهى محكومة بما تقول أمام الغرباء، وكيف تتكلم بدون دلال أو غنج وكيف تمشى وهى محكومة بما هو مسموح لها برؤيته فى التليفزيون أو الانترنت. ومحكومة بما تمارس من رياضة وماذا تلبس فى رياضتها لقد تحولت المرأة المصرية إلى ضحية لكل عقد الرجل بل كل عقد المجتمع واحتقانه.

أمام كل ذلك تحولت المرأة إلى كيان مجروح ولأنها كيان حى من لحم ودم وتملك كل ما يملكه الرجل فإنها لم تحتمل هذا الاحتقان القاتل فتحولت إلى نمر مجروح يريد أن يثأر لكرامته المجروحة من الطغيان المجتمعى وحتى الأسرى، فبدأت تلعب دور الضحية لاكتساب أكبر قدر ممن ظلمها وأصبحت علاقتها بالرجل سواء كان رئيسا أو أبا أو ابنا أو حبيبا أو زوجا هى علاقة مصلحة، فلم تعد للمشاعر عندها أى قيمة تذكر، وكيف تكون هناك مشاعر سوية مع من قضى على إنسانيتها، وانتشرت جرائم المرأة فى العشر سنوات الأخيرة ضد الرجل وسجلت مراكز الإحصاء نسبة عالية فى العشر سنوات الأخيرة توازى 60 سنة سابقة كما تغير نوع الجرائم من القتل السهل إلى القتل العنيف.

أما إذا كانت المرأة غير قادرة على تحقيق مصلحتها من الرجل فإن النكد الزوجى أمر تجيده المرأة حتى تلحق الأذية النفسية للرجل كعقاب له على ما ارتكبه فى حقها من عنف.

# الحلال والحرام

ينظم الدين الإسلامى الذنوب إلى كبائر وصغائر ومعاص ولمم، ولكن هذا التصنيف لم يعد مقبولا فى مصر وأصبح التصنيف السائد الآن هو الحلال والحرام فقط، والحلال معروف ولا يوجد من يتحدث عنه أما الحرام فهو كل شىء يراه رجال الدين مانعا لسيطرتهم على المجتمع وحائلا أمام بيع منتجهم الدينى وضموا الكبائر إلى اللمم والصغائر فأصبح كل ما يفعله الإنسان حراماً مطلقاً وهذه الثقافة «ثقافة الحلال والحرام» انتشرت فى كل أوساط الشعب حتى أنك تجد من لم يدخل مدرسة فى حياته ولم يعرف القراءة والكتابة يحدثك عن الحرام والحلال بل ويفتيك أحيانا، بل أصبح كثير من الناس الفاشلين والأكثر فقرا يجدون فى الحديث عن الدين تعويضا عن فشلهم فى التعليم أو فى تحقيق فرص عمل أفضل، بل أصبح ميزة يتحلون بها ضد من يعتقدون أنهم الأفضل فى المستوى الاجتماعى فيكثرون من النقد لهم باسم الدين رغم أنهم لا يعلمون منه إلا ما يسمعونه فى المسجد أو فى التليفزيون، ثم ارتفع بهم الأمر ليستخدموا الوعظ الدينى ضدهم كميزة لمجرد أنه صنع علامة الصلاة فوق جبهته أو أطلق لحيته.

***

### رجال الدين

كنا جميعا كمصريين نحترم رجل الدين سواء كان شيخا أزهريا أو إمام مسجد أو قسيسا فى كنيسة، وذلك عندما كان رجال الدين فى مساجدهم أو كنائسهم يلقون خطبهم ومواعظهم فيها، وكان الوعظ لا يتعدى التوحيد أو الحديث عن الأنبياء والرسل وقصصهم فى الكتب المقدسة.

وفى الفترة الأخيرة منذ ثلاثين سنة تقريبا ومع انتشار التليفزيون ثم القنوات الفضائية سيطر رجال الدين على الشارع المصرى سواء كان ذلك باتفاق مع الحكومة أو بدون اتفاق لكنهم فى النهاية سيطروا ثقافيا على الشارع المصرى وأصبح ما يقوله الفقهاء والخطباء والمفتون هو الثقافة السائدة ولم يكتفوا بالمسجد وإنما أدخلوا الثقافة الدينية إلى داخل البيت ولم يكتفوا بهذا وإنما أدخلوها إلى الحمام والمطبخ وحجرة النوم – وتناولت فتاواهم ماذا نأكل

وكيف نأكل وكيف ندخل الحمام وماذا نقول عند دخولنا وماذا نقول عند إقامة العلاقات الحميمية بين الزوج والزوجة وماذا نأكل وكيف نربى أولادنا ولماذا نقرأ، وكيف ننام وكيف نظف أسناننا، وكل هذا مرتبط بطقوس خاصة وأقوال ودعاء ذكرها السلف فى كل هذه المواقف حتى ركوب السيارة والمصعد والسفر وكل ما يسلكه الإنسان منذ استيقاظه من النوم وحتى ينام فى نهاية الليل.. وحذروا الإنسان من إغفال كل ما قالوه وإلا وضع نفسه تحت سيف الحرام.

لقد أصبح الحرام هو أكثر الكلمات ترديدا على مدار اليوم كله فى قاموس المصريين.

## استبدال لغوى دينى

كان إفشاء السلام فى الجزيرة العربية مسألة أمن قومى فى بداية تأسيس الدولة الإسلامية حيث ان الغزو والقتل فلكلور شعبى يجيده أهل الجزيرة قبل الإسلام وكان من السهل أن يقتل عربى آخر لأخذ راتبه أو زوجته أو ما يملكه الآخر دون خوف أو وجل ، ثم جاء الإسلام وأراد أن يفشى السلام بينهم وصارت تحية الإسلام هى السلام عليكم فإذا قالها أحدهم للآخر فهم منها أنه يعطيه الأمان فلن يعتدى عليه أو على ما يملك – والآن نرى المصريين جميعا يحيون بعضهم البعض بهذه التحية رغم أنهم لا يريدون الفتك بالآخرين لأن هذه التحية كانت فى زمان ومكان مختلفين – ثم استحرم المصريون أى تحية مصرية أخرى مثل صباح الخير ومساء الخير أو مساء النور وهكذا، ورغم أن هذه التحية ليس فيها ما يضر بالدين أو يسىء إليه فإنهم الآن يستهجنون من يلقيها وكأنه ارتكب حماقة أو شيئا حراما.

من ناحية أخرى استبدلوا كلمة شكرا بجزاك الله كل خير واستبدلوا الجيم القاهرية بالجيم المعطشة أسوة بلهجة قريش رغم أن علماء اللغة يؤكدون أن الجيم القاهرية هى الفصيحة.

من ناحية أخرى استبدل المصريون العزاء عند الوفاة بدلا من إقامة سرادق لقراءة القرآن على الميت استبدلوه بالصلاة على الميت عند الدفن فقط وسموه «بالعزاء قاصر» ونفس الشىء بالنسبة لدفن الميت فأصبحت المقابر مساوية للأرض بعد أن كان المصريون يرفعونها كثيرا عن الأرض ويقيمون لها غرفا لزيارة الميت فى المناسبات تلك الزيارات التى تحمل معنى عاطفى عند المصريين وتشكل جزءا من هويتهم استبدلوها بثقافة جديدة ليست فى القرآن الكريم.

# الدين والعلاقة الزوجية

إذا أنت وقفت أمام مدرسة بنات في المرحلة الإعدادية ونظرت إلي التلميذات الصغيرات وهن يحملن حقيبة المدرسة سوف تلحظ أن كل البنات تقريبا يضعن الحقيبة أمام صدورهن ويحتضنها بهدف إخفاء صدرها الذي بدأ في الظهور وكأنه عوره لابد من إخفائه. فإذا وقفت أمام مدرسة ثانوية وقد بلغت البنات سنا أكبر سوف تجدهن وقد وضعن الحقيبة أمام فروجهن لنفس الهدف السابق.

كما سبق وقلنا إن العنف الدينى على المرأة قد جعلها تخجل من جسدها وهناك بعض النساء ترفض النظر إلى أنفسهن فى المرآة عرايا خجلا من أنفسهن رغم أنه لا يراها أحد، إن هذه المرأة إذا تزوجت يظل هذا الهاجس معها «الحلال والحرام» حتى إنها لم تعد قادرة على تحقيق السعادة لنفسها أو لزوجها أثناء العلاقات الجنسية بينهما وكأنها تضع بينها وبين زوجها فى فراش الزوجية سجادة صلاة أو صليبا إذا كانت مسيحية.

إن العنف الدينى يمنع المرأة من الإحساس بمشاعر إيجابية تجاه الزوج فتفشل الحياة الزوجين بين الزوجين، حتى إن علماء النفس حسب احصائياتهم يعتقدون أن عدم الانسجام الحميمى بين الزوجين يسبب 70٪ من حالات الطلاق فى المجتمع المصرى.

## حضارة كافرة

أصبح الحكم على أى تقدم حضارى يرتبط عند المصريين بمدى قربه أو بعده عن الدين، ومن هذا المنطلق فقد حرص الخطاب الدينى على تصوير الحياة المصرية القديمة على أنها حضارة كافرة نسبة إلى فرعون الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم حتى أصبحت النظرة إلى تراثهم الحضارى نظرة دونية بمعنى أنها حضارة غير محترمة لأن الفراعين كانوا يحكمونها، ونتيجة لهذا الفهم رأينا المصريين الآن لا يهتمون بتاريخهم الحضارى وكأنه تاريخ مجتمع آخر غير المجتمع المصرى ولا يذكرون عنه إلا كل ما يسىء إليه.

إن الإلحاح من رجال الدين على سب فرعون وأتباعه بصفة دائمة ثم مقارنة ذلك بما فعله السلف الإسلامى يبدو لأى مفكر وكأنه محاولة لطمس الهوية المصرية والتنصل منها واستبدالها بالهوية العربية وكثيرا ما تجد رجال الدين فى الفضائيات يؤكدون أن أجدادهم هم السلف الصالح ويدعون الخلف بالتمسك بما كان عليه أجدادهم من هؤلاء السلف الذين هم فى حقيقة الأمر ليسوا مصريين ولا يمتون للمصريين بصلة الدم ولا حتى من الجنس فالعرب من جنس سام مثل اليهود أما المصريون فهم من جنس حام، ولا أعرف كيف استطاع رجال الدين إقامة شجرة عائلة للمصريين تعود بهم إلى الجنس العربى رغم استحالة ذلك علميا.

وظهرت موضة فى معظم البيوت المصرية وهى ادعاء الكثير منهم للانتساب للأشراف العرب اعتمادا على كتاب «نهاية الإرب فى أنساب العرب» حيث ذكر هذا الكتاب آلاف الأسماء التى تنتسب إلى قبائل عربية وبحث المصريون فى أمثال هذه الكتب واستغل البعض سذاجة ورغبة الآخرين فى التقرب من آل البيت وصنعوا لهم شجرة عائلة تناسب أهواءهم.

وأنا أعلم تماما حسب ما يذكر التاريخ أثناء الفتح العربى لمصر وبعد إقامتهم للمساجد فيها كان الحاكم العربى يعين خطباء المساجد من أهل الجزيرة العربية وبلغ إعجاب بعض المصريين بخطباء المساجد أنهم كانوا يسمون أولادهم على أسمائهم، ومن هنا رأينا الأسماء المشتركة بين المصريين والعرب تلك أسماء التى استخدمها السماسرة فى صنع أشجار عائلات لبعض المهووسين دينيا بانتسابهم العربى.

ومازال الحال مستمرا فى كراهية كل ما هو مصرى قديم بل واحتقاره أحيانا بدعوى أنه ينتسب إلى حضارة غير مؤمنة رغم أن المصريين قديما هم أول من أعلن التوحيد على مستوى العالم كله.

والمتأمل للأمر يرى أن الخطاب الدينى حتى والتاريخى بدأ ينسب معظم الإنجازات العلمية التى قام بها المصريون قديما إلى العرب فالساعة «أو المزولة» مازالت موجودة فى متحف الآثار المصرى قبل الإسلام بثلاثة آلاف عام وعلم الرياضة شاهد على آثار المصريين وكذا الطب والهندسة والفلك.

ان محو التاريخ المصرى وتكفيره أصبح خطابا يوميا فى جميع قنوات الإعلام الدينى ووقع رجال الدين فى فخ نصبه لهم غيرهم لأهداف غير معلنة.

واستمرارا لذلك تكاد المناهج الدراسية تخلو من أى احترام حقيقى للحضارة المصرية التى يحترمها العالم ويدرسونها فى جميع مدارسهم بطريقة محترمة تعلى من شأنها.

## الحالة السياسية

ان الحالة السياسية هى نتاج لأفكار المسئولين عن الحكم فى مصر، وثقافتهم السياسية، وتجلى ذلك فى كل الحكومات المتعاقبة على مصر منذ نهاية حرب أكتوبر ومعاهدة السلام وحتى الآن، حيث حرصت هذه الحكومات بوزرائها المنتخبين بطريقة عشوائية من قبل رئيس الوزراء أو القيادة السياسية على إدارة مصر بطريقة تخلو تماما من أى استراتيجية واضحة ومعلنة ومخطط لها تخطيطا علميا، وعلى سبيل المثال لا الحصر وجدنا مسألة التطبيع مع إسرائيل بعد معاهدة السلام تخضع عند الحكومات المتعاقبة إلى مؤثرات فرعية فمرة تراعى مصر الخطاب القومى العروبى والفكر الناصرى ومحاولة عودة مصر إلى الحظيرة العربية بعد المقاطعة، ومرة أخرى تحاول إرضاء القوى العالمية الكبرى ممثلة فى أمريكا والاتحاد الأوروبى ومرة ثالثة تحاول استمالة الجماهير والتيار الدينى فى رفض التطبيع وفى النهاية تحاول القوى السياسية الحاكمة إمساك العصا بثلاث زوايا إحداها العودة للعروبة واسترداد دور مصر السابق ورفض التطبيع والثانية استرضاء أمريكا وأوروبا فى إقامة علاقات ومشاريع صغيرة مع إسرائيل وفى الثالثة تعلن رفض التطبيع لإرضاء التيار الدينى الذى سيطر على الشارع المصرى.

كل هذا التخبط السياسى دون الأخذ فى الاعتبار مصلحة مصر أولا، لم يكن فيما حدث أى قرار سياسى مدروس يراعى استفادة مصر من التطبيع أو عدمها وإنما كانت التوازنات السياسية هى التى تسيطر على حالة السياسة المصرية.

نفس الشيء يقال عن سياسة مصر فيما يتعلق بنهر النيل ومنابعه والدول المشتركة معها فى مياه النيل.

فإذا عدنا إلى الداخل ولتكن مثلا مشكلة التعليم والصحة على سبيل المثال لوجدنا أن ميزانية وزارتى التعليم والصحة فى مصر لا تزيد على 10٪ من ميزانية الدولة رغم أنهما أكبر وزارتين فى مصر، وخفض هذه الميزانية إلى هذه الدرجة يؤكد أن السياسة الداخلية لا تطمع فى تحقيق أى تقدم حضارى على المستوى التعليمى أو الصحى.

فإذا انتقلنا إلى الأحزاب السياسية سوف نلحظ إصرار الحكومات على احتلال مصر عن طريق الحزب الواحد دون إتاحة أى فرصة لقوى سياسية أخرى لمنافسة هذا الحزب، واستخدمت الحكومة المصرية فزاعة الإخوان المسلمين لإرهاب القوى العالمية لإقناعها بأنه ليس فى الإمكان أحسن مما كان.

وعندما أصرت القوى العالمية على تطبيق الديمقراطية استغلت الحكومة الفتنة الطائفية كفزاعة أخرى فى محاولة لإقناع القوى العالمية بأن النظام الحالى هو الضامن لسلامة كل من يعيش على أرض مصر سواء كان مسيحيا أو بهائيا أو غيرهما.

وهكذا تلعب السياسة فى الوقت الحالى هذه اللعبة السياسية – أيضا – دون رؤية لمصلحة مصر فى المقام الأول.

لقد عنيت السياسة المصرية فى الفترة الأخيرة بضمان السيطرة على الحكم والحفاظ على الكراسى التى حصلت عليها الحكومة ورجالها من الحزب الوطنى والحكم المحلى على مستوى الجمهورية ولم يعد عند السياسيين الرسميين فى مصر سوى مطلب واحد وهو الحفاظ على مكتسبات الحكومة والحزب الوطنى والإدارة المحلية والكثير من رجالهم المنتشرين فى الإعلام أو الأماكن الحساسة حتى يضمنوا السيطرة الكاملة على مقاليد الحكم أما مصر والإنسان المصرى فتلك قضية لم تعد تشغل بال أحد من رجالات الحكومة.

هذا هو الحاصل الآن فى الحالة السياسية المصرية وقس على ذلك فى كل المجالات السياسية وقد وظفوا التخطيط ووضع السياسات للحفاظ على هذه المكاسب والمقاعد أما التخطيط لمصر فهذا شأن آخر.

## انهيار القيم

مع الرصد الواعى لحركة المجتمع المصرى على المستوى الاجتماعى ندرك بسهولة أن هناك خللا قيميا أصاب طبقات المجتمع الثلاث.

لقد كانت المنظومة القيمية حتى أواخر السبعينيات لا تختلف كثيرا عما كانت عليه قبل الثورة، بل كانت امتدادا لها وإن بدأت تدخل عليها بعض التعديلات الطفيفة، ونلاحظ ذلك مثلا فى سرادقات العزاء فقد كانت فى الماضى تمتد إلى ثلاثة أيام منذ وفاة المتوفى لكنها فى أواخر السبعينيات اقتصرت على ليلة واحدة فقط، ثم تطور الحال فى السنوات الأخيرة حتى أصبح العزاء قاصرا على دفن الميت، مع علمنا أن هذه القيمة «تكريم الميت» هى أقوى القيم لدى المصريين وامتدت جذورها إلى أعماق الشخصية المصرية، وسيأتى الحديث عن الأسباب فى مرحلة لاحقة.

هذا بالنسبة لقيمة إكرام الميت، أما بالنسبة لقيم المصرى عموما فقد أصابها التآكل بداية من اتقان العمل والكرم والشهامة والمروءة واحترام المرأة وعدم التحرش بها، وكذلك عدم ازدواج المعايير، ناهيك عن الشعور بالمواطنة واحترام الجار واحترام عقيدة الآخرين وعدم قبول الرشوة والبعد عن الفساد، بالإضافة إلى قيم القناعة واحترام الكبير والحرص على صلة الرحم وغيرها من القيم التى عاش المصرى عليها ردحا طويلا من الزمن واستمرت داخل مخزونه الثقافى آلاف السنين.

ان انهيار منظومة القيم لدى المصريين أصبح خطرا يهدد الشخصية المصرية التى كانت تتسم بثبات قيمها على مر الزمن، وكان ثبات هذه القيم مدعاة للفخر عند المصريين وتجلى ذلك فى جميع فنونهم سواء كانت سمعية أو مرئية، لكن التدهور الذى حدث مؤخرا أدى لإعمال الفكر فيها لأنها أصبحت ظاهرة عامة.

وقد أدى انهيار القيم إلى إعلاء مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة دون الأخذ فى الاعتبار المردود السلبى على الجماعة.

أما ازدياد العنف فى المجتمع المصرى فقد زاد زيادة عالية ودخل قاموس الجرائم، جرائم جديدة لم تكن موجودة أصلا فى المجتمع المصرى مثل الاعتداء على الحرمات والاغتصاب والرشوة، وأصبحت ظاهرة النصب من أكثر الظواهر انتشارا فى المجتمع المصرى، وقد أسس لهذه الظاهرة التيار الدينى عندما بدأ فى تكوين كيانات اقتصادية كبيرة بهدف السيطرة على الاقتصاد المصرى، تلك الظاهرة المسماة بـ «توظيف الأموال»، ناهيك عن ظاهرة أطفال الشوارع التى يعانى منها المجتمع المصرى.

إن آلاف الظواهر الاجتماعية السلبية قد انتشرت بطريقة سريعة تجر معها المجتمع للقاع إذا لم يتم تداركها سريعا.

# محاكم التفتيش الفضائية

انتشرت فى الآونة الأخيرة القنوات الفضائية ودخلت كل بيوت المصريين وتشعبت إلى قنوات رياضية وفنية ومنوعات وقنوات عامة شاملة، وقد ساعدت هذه القنوات على تدهور القيم المصرية إلى حد كبير ونستطيع تقسيمها على النحو التالى:

**القنوات الدينية:**

اهتمت هذه القنوات بالدعوة الإسلامية وكأنها تباشر الدعوة فى مجتمع غير مسلم، وكان منهج هذه القنوات يعتمد على منهج سلفى وهابى استمد أصوله من بيئة صحراوية تختلف تماما عن البيئة الزراعية التى قدس أفرادها أهمية العمل فى مجتمع متكامل أنتجه أفراده من قيم مشتركة فرضتها عليهم طبيعة الاستقرار والتعامل مع الآخرين فى سلام وطمأنينة، أما المجتمع البدوى وقيمه التى يدعون إليها فإنها تنسجم تماما مع طبيعة حرفة البدوى حيث الرعى والانتقال من وادٍ إلى آخر.

هذه القنوات اعتمدت فى منهجها على الاقتصاد الدينى وهذا الاقتصاد يهدف فى الأساس إلى بيع المنتج الدينى لرجال الدين على كل المستويات، وكانت وسيلتها فى ذلك هى نشر الغيبوبة الدينية لدى المشاهد المصرى، عملا

بالقاعدة التى تقول: «كلما ازدادت الغيبوبة الدينية، ازداد الإقبال على المنتج الدينى»، ويتجلى هذا المنتج فى ملابس النساء «الإسلامية على حد زعمهم» وكذا الكتب الدينية وحتى سيديهات الكمبيوتر الدينية التى تحمل خطب ومواعظ رجال الدين التى تنذر بعقاب كل من يبتعد عن صحيح الدين، وصحيح الدين فى نظرهم يتحور حول ربط الإنسان بطقوس دينية فعلية وقولية منذ قيامه من النوم وحتى عودته إليه فى المساء فعند تناول الطعام هناك طقس دينى وكذلك عند دخول الحمام وعند الاستحمام وعند الخروج من المنزل وعند ركوب وسيلة المواصلات وكذلك فى العمل وحتى طريقة اتيان الزوجة وطريقة النوم، أما المرأة فقد صب الخطاب الدينى لهذه القنوات جام غضبه عليها فحوصرت به فى كل حركة تفعلها أو لبس ترتديه أو قول تتلفظ به.

وهكذا استطاعت هذه القنوات الدينية نشر الغيبوبة لدى عامة الشعب المصرى حتى وصل الأمر إلى النخبة منه وأصبح من السهل جدا أن تجد خادمة لا تعرف القراءة والكتابة وهى تصحح وتعدل لمخدومها أستاذ الجامعة بعض الأمور الدينية التى تسمعها فى الفضائيات.

**القنوات الشاملة:**

اعتمدت هذه القنوات ومعظمها خاصة وانضم لها أخيرا بعض القنوات الحكومية لاكتساب الشعبية على برامج «التوك شو» التى حققت شهرة كبيرة لهذه القنوات ويأتى على رأسها قنوات المحور ودريم والفراعين والحياة وحتى القناة الأولى المصرية وكذلك القناة الثقافية المصرية حيث أصبحت هذه القنوات تقوم بدور محاكم التفتيش الدينية فتأتى بالضيف العلمانى أو ذلك الكاتب أو الكاتبة لمواجهة شيوخ الدين سواء كانوا من الأزهر أو من الدعاة الجدد ويقيمون فى البرنامج محاكمة لما يكتبه الكاتب الذى يخالفهم فى الرأى ولقد تجلى ذلك فى الأعوام الأخيرة بكثرة مفرطة ، مثل ما رأيناه من محاكمات دينية للمفكر جمال البنا والدكتور سيد القمنى والكاتب يوسف زيدان والدكتور نصر حامد أبو زيد وحتى لم يسلم الفنانون من المحاكمة بتهمة الشذوذ الجنسى فرأينا القنوات تأتى بالفنانين نور الشريف وحمدى الوزير وخالد أبو النجا وأقاموا لهم محاكمات على الهواء من الشيوخ فى الاستديو وكذلك من المتصلين الذين يفوقون الشيوخ تطرفا..

فى هذه البرامج حاول معدوها الضغط على الكتاب والمفكرين لنطق الشهادتين وإعلان الاستتابة مما كتبوه لأنه «إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة» تلك القاعدة الفقهية التى يستخدمونها سوطا لجلد كل مفكر أو كاتب يخرج عن فكر فقهاء الدين.

والغريب فى الأمر والذى يدعو إلى العجب أن التليفزيون المصرى الحكومى اشترك فى هذه المهزلة فقام بنفس الدور الذى قامت به القنوات الخاصة.

ومما يدعو للعجب أن التليفزيون المصرى قد أنشأ قناتين إحداهما سماها «قناة التنوير» والأخرى سماها «القناة الثقافية» أما القناة الأولى والتى من اسمها نفهم أنها تدعو إلى التنوير فإن نصف برامجها كانت برامج دينية توصل للمنهج السلفى، وحينما تم توقف القناة قامت القناة الثقافية بالدورين معا واستمرت على نفس النهج الذى كانت عليه قناة التنوير.

## محاكمة الكتاب

انتشرت فى الفترة الأخيرة وتزامنا مع محاكم التفتيش الفضائية، ظاهرة جديدة على المجتمع المصرى، وهى ظاهرة رفع قضايا على الكتاب والمفكرين مطالبة بمصادرة كتاب أو تكفير كاتب وقام بهذا الدور بعض المحامين والشيوخ أمثال الشيخ يوسف البدرى والمحامى نبيل الوحش اللذين رفعا عشرات القضايا مطالبين بمصادرة كتب واتهام أصحابها بالكفر وهذه الظاهرة أصبحت تقف حائلا نحو تنوير الشعب المصرى كما أصبحت سوطا ينال من كل فكر حر وجديد يساعد فى عملية التنوير.

ان حرص رجال الدين على التصدى لكل مفكر وكاتب حر قد أدى إلى انكماش حرية الفكر وخوف دور النشر من نشر أعمال تدعو إلى الجدل الدينى أو حتى الجدل الفكرى، وأصبحت الثقافة المصرية تقبع فى مركب مهترئ يقودها بحارة يكرهون العقل والعلم وكل فكر حر جرىء.

## انتشار الخرافة

دائما ما تنتشر الخرافات فى المجتمعات التى تعانى من خطاب دينى عنيف، وكان قبل الأديان تنتشر الخرافة عن طريق السحرة، ولما جاءت الأديان تولى رجال الدين هذا الدور كما رأينا من خرافات على مر التاريخ فى الديانات السماوية الثلاث وأشهرها ما حدث فى العصور الوسطى فى أوروبا والآن فى العالم الإسلامى، نلاحظ أن الخرافة تنتشر بسرعة انتشار الفضائيات والصحف الصفراء، ومع تقدم العلم الذى وصل إلى القنوات الفضائية والكمبيوتر وغيرها نجد ويا للغرابة زيادة هائلة فى انتشار الخرافة فى مصر وكذلك الإشاعات ذات المدلول الدينى وآخرها ما يحدث حاليا من ظهور السيدة العذراء وكذلك بركات أولياء الله الصالحين ووجود اسم الجلالة فى أماكن متعددة من ثمر إلى شجر..

ناهيك عن الحكايات المؤلفة التى يبثها التيار الدينى من وقت لآخر عن فنان تحرك فى مقبرته أو فاسق أصابه العمى وغير ذلك من الأكاذيب.

ان انتشار الخرافة يساعد على تفشى الغيبوبة فى المجتمع مما يساعد أيضا على زيادة ما يحصل عليه رجال الدين من بيع منتجهم الدينى.

## سيطرة ثقافة القطيع على النخبة

لقد أفرز المجتمع المصرى نخبة حديثة سيطرت على كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وهذه النخبة تختلف تماما عن النخب السابقة على قيام الثورة والتى بقيت حتى أواخر السبعينيات من القرن الماضى، فهذه النخب صعدت من القاع، من الطبقة الدنيا، التى حصلت على تعليمها المجانى مع بدايات الثورة، وشربت من النظام الطليعى الاشتراكى، وتدرجت فى التشكيلات السياسية من الحكم المحلى حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن.

هذه النخب التى تسيطر على المجتمع المصرى عندما تولت مراكزها القيادية الآن، لم تكن معدة سلفا لكى تكون نخبة بالمعنى الصحيح لها، فقد صعدت إلى مكانها الحالى دون تدريب ثقافى حقيقى، ودون وعى صحى بحركة المجتمع، ولم يتم تثقيفها، وعندما صعدت هذه النخب إلى وضعها الحالى، حملت معها ميراثها الثقافى من الطبقة العاملة «عمالاً وفلاحين» والمعروف ان المخزون الثقافى لهذه الطبقة لا يؤهلها إلى تولى قيادات ثقافية أو فنية أو سياسية أو اقتصادية.. لأنها عاشت فى طفولتها حياة وثقافة الطبقة الدنيا، تلك الطبقة التى ترسخ داخل مخزونها الثقافى أنها الأقل بين الطبقات وأنها الأدنى فى السلم الاجتماعى وحياتها أشبه بحياة العبيد بالنسبة للطبقتين الوسطى والعليا..

وعندما تولت هذه الطبقة مواقعها الحالية فإنها لم تستطع أن تجدد فى ثقافتها وتمسكت بمخزونها الثقافى الذى تربت عليه ، فصارت ثقافة القطيع هى نفسها ثقافة النخبة.. وهذا هو ما يحدث فى مصر الآن، فإننا نجد النخبة المصرية سواء كانت فى الصحافة أو أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة تنزل بخطابها بما يرضى الطبقة الدنيا أو عامة الشعب.

فسيطرت بذلك ثقافة القطيع على ثقافة النخبة، لأن جذورها الثقافية تمتد إلى الطبقة الدنيا، لذلك وجدنا الأقلام تنهال بالسباب على كل صاحب فكر جديد ويتم اتهامه إما بالعمالة للخارج أو بالكفر أو إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة أو أنه معاد للاقتصاد الإسلامى وهكذا..

ولم يقتصر الهجوم من النخبة الصحفية بل وجدنا رؤساء أحزاب وأعضاء مجلس الشعب وسياسيين يتبارون فى الدفاع عن الجهل والتخلف والغيبوبة ثم يتم تطبيق العقوبة على الفكر الحر إما بالمصادرة أو بالمحاكمة أو بالتعرض لحياته الشخصية والبحث عن ملفات كاذبة لتشويه صورته أمام القطيع.

إن وظيفة النخبة فى أى مجتمع تشبه وظيفة القاطرة التى تجر عربات القطار إلى الأمام وإلى التقدم واحتلال مكانة حضارية تناسب القرن الواحد والعشرين، ولكن النخبة فى مصر تجر مصر إلى الخلف.. فأصبح التقهقر للخلف هو شعار النخبة فى هذه المرحلة لماذا..!! لأن النخب فى مصر أصابتها عدوى العشوائية التى استمرت فى مصر منذ بداية الثورة.. لأن انهيار التعليم خرج لنا أشخاصا غير مثقفين لا تاريخيا ولا سياسيا ولا حتى جغرافيا، فإذا أضفنا لعامل التعليم المخزون الثقافى لهذه النخب فإننا نجد نخبا غير واعية بالقيم الحضارية الحديثة ولا بمكانة مصر والمصريين.. نخبا همها الأول جمع الأموال والتفوق المادى على النخب القديمة للانتقام منها والسيطرة عليها، نجد نخبا خاضعة بصورة بشعة للخطابات الثقافية والدينية بعد الثورة... دون حتى محاولة التفكير فى مضمون هذه الخطابات وعلى سبيل المثال فرغم انهيار الاتحاد السوفييتى وانتهاء الاشتراكية من العالم وموت عبد الناصر وانهيار خطابه الاشتراكى والقومى العروبى.. ورغم كل هذه المتغيرات العالمية فإن النخب المصرية مازالت حتى الآن تتمسك بهذه الشعارات.. والسبب فى ذلك أنهم لا يعرفون غيرها ولم يقرأوا غيرها ولم يثقفوا أنفسهم بالمستجدات العالمية..

# الصحافة

بعد أن تولى رئاسة تحرير الصحف القومية رجال من أهل الثقة، ويدينون بالولاء للأجهزة الحكومية، أصبحت الصحافة المصرية تردد خطابا واحدا، هو الخطاب الحكومى.. فأيام تولى الرئيس عبد الناصر كان الخطاب القومى العروبى والخطاب الاشتراكى هما الخطابان الأكثر دورانا فى مانشتات الصحف الحكومية، وبعد تولى الرئيس السادات أتاح للصحافة بعض الحرية وكان المقصود بها التمويه على خطة الحرب وميعادها مع إسرائيل، وازداد هجوم الصحف على الرئيس السادات، ولكن هذه الصحف أبدا لم تمتنع عن ترديد خطابات الرئيس عبد الناصر القومية والاشتراكية، وبعد مقتل الرئيس السادات وتولى الرئيس مبارك السلطة بدأ ظهور الصحف الحزبية والمستقلة كما بدأ معها صعود التيار الدينى بطريقة لافتة للنظر، فانبرت هذه الصحف جميعها بدون استثناء فى إضافة خطاب جديد وهو الخطاب الدينى بالطريقة التى أراد لها التيار الدينى أن تنتشر فى الشارع المصرى، وكانت للأسف على الطريقة الوهابية..

وكلما ازدادت سيطرة النخبة غير المثقفة على الصحف.. انحدرت الصحف فى خطابها وابتعدت تماما عن توخى شرف المهنة فى القضايا التى تمس الأشخاص ، خاصة من أصحاب الفكر الليبرالى.. وصبت الصحف جام غضبها على

هؤلاء واعتبرتهم عملاء للغرب وشوهت صورتهم أمام الرأى العام..

وكما قلنا سلفا فإن النخب التى أدارت هذه الصحف كانت فى جذورها الثقافية تنتمى للطبقة العاملة المشغولة بالدين كمنفذ لأوضاعها الاقتصادية وكملجأ آمن نفسيا لعلاج حالات الفقر والظلم التى أصيبوا بها وتحولت هذه الصحف إلى صحافة صفراء على مختلف انتماءاتها.. تحارب كل فكر حر وتكيل لصاحبه الاتهامات بطريقة كاذبة لا تتوخى الصدق فيها.

وأصبحت هذه الصحف خادمة لمصالحها فقط وتقوم بالابتزاز أحيانا لتحقيق هذه المصالح، كما أصبحت سوطا فى يد التيار الدينى بوعى منها أو بدون وعى حتى تكتسب زيادة فى التوزيع وإعلانات رجال الاقتصاد الإسلامى..

إن الصحف المصرية الآن أصبحت حجر عثرة فى تنوير الشعب وتضع كل العراقيل أمامه حتى يظل عالقا فى هذه الغيبوبة..

## الصحفيون

وما قلنا سابقا حول ثقافة النخبة نقوله بالتالى عن مستوى الصحفيين الثقافى ولقد عملت فترة لا بأس بها كمسئول عن الديسك فى إحدى الصحف ورأيت كل ما يخجل من المستوى الثقافى لـ 95٪ من الصحفيين، لم يقرأوا كتابا واحدا بعد تخرجهم فى الجامعة وغير ملمين بالحركة الثقافية أو السياسية أو غيرهما ومستواهم اللغوى لا يصل لمستوى طالب فى المرحلة الابتدائية فى الستينيات من القرن الماضى.. بالإضافة إلى كونهم أقل وعيا من رجل الشارع نفسه.

إن مستوى الصحفيين فى مصر مزرٍ إلى أقصى درجة خاصة بعد حصولهم على منحة شهرية من نقابة الصحفيين جعلتهم يرتخون ولاً يجددون من أفكارهم أو ثقافتهم لذلك يعتمدون اعتمادا أصيلا على النقل عن الإنترنت ، وما تقوله الصحف الأخرى دون محاولة لإعمال أى فكر فيما يكتبونه.. وأصبحت ثقافتهم لا تزيد بأى حال على ثقافة القطيع الذى جاءوا منه.

# الأمن هو الحل

بعد الأداء السيئ للوزارات فى الثلاثين سنة الأخيرة تحمل الأمن المصرى ممثلا فى وزارة الداخلية بكل أقسامها مسئولية علاج أخطاء هذه الوزارات، فصار الأمن هو المنوط به حل المشاكل التى تواجه ضعف الإدارة الحكومية، فالمشاكل فى العشوائيات يتحملها الأمن، ومشاكل الصرف الصحى يتحملها الأمن وثورة النقابات يتحملها الأمن والاعتصامات المطالبة بالحقوق الضائعة لدى الوزارات الأخرى يتحملها الأمن حتى المشاكل الثقافية والحزبية والاقتصادية أصبح الأمن مسئولاً عن حلها..

**وقد أدى ذلك إلى شيئين:**

**أولهما:** تشويه صورة رجل الأمن.

**ثانيهما:** عدم تحمل الوزارات مسئولياتها كاملة طالما أن الأمن يعالجها فى النهاية.

إن القضايا المتراكمة.. وسوء الأداء الانتخابى، وحتى مشاكل الكرة والأقليات والفتنة الطائفية والمزارعين والعمال كلها مشاكل تقع مسئوليتها عند الوزارات المختلفة.. وعلاج الأمن لها سيكون بالضرورة علاجا ضاغطا على أصحابها ومكلفا أمنيا من ناحية أخرى.

لذلك رأينا مصر فى السنوات الأخيرة وكأنها محمية أمنية

لكن إلى متى يستطيع الأمن المصرى الحفاظ على هذا الوضع؟.!! هذا ما سوف تجيب الأيام عنه..

## العبيد لا يصنعون الحضارة

عودة إلى الوراء حيث الحضارة المصرية القديمة التى مازالت تبهر العالم حتى الآن والتى نقل عنها اليونان فصنعوا حضارتهم ثم نقل العرب عن اليونان نفس العلوم فصنعوا الحضارة العربية ثم نقل الغرب عن العرب نفس العلوم فقامت الحضارة المصرية الحديثة، فمصر هى الأصل، وهى الأم لكل الحضارات التى جاءت بعدها.

عندما صنع اليونانيون حضارتهم كانوا أحرارا، وعندما صنع العرب حضارتهم كانوا أيضا أحرارا، وعندما صنع الغرب الحضارة الحديثة كانوا ومازالوا أحرارا، فلماذا نقول إ الحضارة المصرية قامت على العبودية!!

هذا كلام غير مفهوم وغير مقنع ، أن العبيد لا يقيمون حضارة والتاريخ يشهد بذلك فعندما كانت أوروبا مستعبدة فى العصور الوسطى كان التخلف والانهيار القيمى هو السائد.

## العبودية وعلاقتها بالطبقات

كانت مصر حرة حتى جاء البيزنطيون اليونان بقيادة الإسكندر الأكبر.. لكن مصر فى عهد الاسكندر كانت تتمتع بحرية لا تقل عن الحرية فى اليونان التى كانت تعرف مبادئ الديمقراطية بمجالس منتخبة من الحكماء تحاسب الحاكم.

عندما دخل اليونان مصر تأثروا بالثقافة المصرية التى رأوها أعلى مما وصلوا إليه فى اليونان، حتى إن علماءهم نهلوا العلم من مكتبة الإسكندرية التى كانت قائمة من قبل.. حتى إن الإسكندر نفسه دخل فى الديانة المصرية ونصب نفسه ملكا مصريا وبنى معبدا له..

ونستطيع باختصار إن نقول أن المصريين كانوا أحرارا فى العهد البيزنطى.. وبعد سيطرة الرومان على مصر بعد البيزنطيين كان هم الرومان والقياصرة إنتاج مصر من القمح والذرة، فكانت مصر مخزن الحبوب للدولة الرومانية..

لكن حيث الحرية لم يكن الرومان على هذا القدر خاصة بعد دخول مصر إلى المسيحية حيث قامت حروب مسيحية متعددة اشترك فيها المصريون بالإضافة إلى أن استنزاف الإنتاج المصرى من القمح والذرة حتى فرضوا على المصريين الضرائب لأول مرة فى تاريخ مصر.

لقد مارس الرومان قليلا من العبودية على المصريين لكن يد المصريين كانت ، مازالت هى الأعلى على المستعمر الرومانى، حيث كان حرصه على القمح والذرة أهم عنده من قهر الفلاح المصرى، حتى يتفرغ للإنتاج الذى هو فى حاجة إليه، لكن حكمهم رغم ذلك لم يخلُ من ممارسة أنواع من العبودية.

لكن ما ينبغى أن نعلمه أن كلا الاستعمارين البيزنطى والرومانى لمصر لم يستطع أن يسلب أو يؤثر على الهوية المصرية فظلت الهوية كما هى وظل المخزون الثقافى كما هو لم يتأثر بالثقافات الواردة.

ولكن عندما جاء العرب مصر حاملين معهم ديانة جديدة دخلها المصريون لتشابهها مع الديانة المصرية القديمة التى كانت تؤمن بالبعث والجنة والنار وتحتوى على أركان الإسلام الخمسة من صوم وصلاة وحج وزكاة بالإضافة إلى التوحيد الذى عرفه المصريون، دخل العرب مصر حاملين معهم كتاب الله ولكنهم كانوا يحملون معهم مخزونهم الثقافى البدوى الذى يتناقض ويبتعد عن كتاب الله وفى حكمهم لمصر حيث الوفرة فى كل شىء فى الغذاء والكساء والحبوب والفاكهة..

انبهر العرب بما رأوه من خيرات مصر وبدأوا فى نقل هذه الخيرات بطريقة عشوائية بحيث تقضى على الأخضر واليابس وقد تجلى ذلك فى قول عمرو بن العاص للخليفة عثمان بن عفان عندما عزله عن ولاية مصر وعين بدلا منه عبد الله بن أبى اسرح حتى يزيد الجزية والخراج على المصريين ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد عين عبد الله بن أبى صرح من قبل وليا على الصعيد مشاركة مع عمرو بن العاص لتلكؤ عمرو فى جمع الخراج والجزية قبل جمع المحصول وكان عبد الله قد أرسل إلى عمر بن الخطاب ضعف ما أرسله عمرو بن العاص من الوجه البحرى، وعندما تولى الخليفة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص وعين بدلا منه عبد الله بن أبى صرح على مصر كلها واستطاع عبد الله أن يجمع من الخراج أضعاف ما كان يرسله عمرو بن العاص، وعندما وصل الخراج والجزية إلى المدينة ورآى الخليفة عثمان الوفرة الهائلة منه قال لعمرو بن العاص وكان جالسا معه: لقد أتت البقرة حليبها، فرد عليه عمرو بن العاص قائلا: ولكنكم أعجزتم فصيلها.

هذه القصة وغيرها كثير مدونة فى كتب التراث تثبت أن العرب اختلفوا عن الرومان والبيزنطيين فى طريقة نهب خيرات مصر، فقد كانوا غير حريصين على إقامة السدود والترع والمصارف لزيادة الإنتاج وكما فعل اليونان والرومان ولكنهم استنزفوا ما كان موجودا بالفعل.

هذا من ناحية.. ومن الناحية الأخرى فإن الوثيقة العمرية التى أصدرها الخليفة عمر بن الخطاب لحكم دول العجم ومنهم مصر كانت من القسوة بمكان بحيث جعلت المصريين يتحولون من أحرار إلى عبيد فقد حرمت الوثيقة العمرية على المصريين ركوب الخيل[1] فالخيل لا يركبها إلا الأسياد العرب أما المصريون فلا يركبون إلا الحمير والبغال كما فرض عليهم إذا دخل أعرابى إلى بيت أى مصرى فإن على المصرى أن يستضيفه ثلاثة أيام[2] كاملة فيبيت عنده ويأكل مأكله ويختلط بأفراد أسرته ناهيك عن ما يمكن أن يحدث من اعتداء على نساء البيت فى حالة غياب رب البيت فى حقله أو فى عمله.. كما حرم عليهم دق أجراس الكنائس وألا يجهروا بصلواتهم وغير ذلك الكثير مسجل فى الوثيقة العمرية الموجودة فى كل كتب التراث..

ان العنف الذى مارسه العرب فى احتلالهم لمصر حولهم من أحرار إلى عبيد وكان أقسى ما حصل من عبودية ما فعله عمرو بن العاص عندما أمره الخليفة عمر بن الخطاب بأن يختم على قفاهم[3]- يقصد المصريين - حتى تكون علامة لمن تستحق عليهم الجزية فصنع عمرو ختما من الحديد يوضع فى النار ويختم به المصريين على قفاهم فتكون علامة ظاهرة على من يدفع الجزية ولما اشتكى المصريون من أن الختم يسبب الموت للبعض لما تحويه مؤخرة الرقبة من شرايين نقل عمرو بن العاص الختم من القفا إلى عظمة الترقوة.. حتى أطلق على المصريين «العظمة الزرقاء» حيث تصيب الزرقة عظمة الترقوه من أثر الختم..

وعندما ثار المصريون على العنف الذى مارسه العرب فى احتلالهم لمصر فى عهد الخليفة المأمون فيما سمى «بثورة البشموريين» جاء الخليفة المأمون بمئات الآلاف من الجنود وقتل 750.000 سبعمائة وخمسين ألف مصرى حتى خمدت الثورة.

(1) البلدان وفتوحها للبلاذرى ص252. الأحكام السلطانية- الماوردى ص253.

(2) حسن المحاضرة السيوطى ج1 ص63. معالم القربة فى أحكام الحسبة – القريشى ص99.

(3) فتح العرب لمصر ص466 – شدو الربابة فى أحوال الصحابة خليل عبد الكريم ص 187.

لقد كان عدد المصريين حين دخول العرب مصر يبلغ من 8-10 ملايين نسمة حسب التعداد الذى قام به عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب ليعرف قيمة الجزية والخراج المستحقين على مصر.

وبعد ألف ومائتى عام من الحكم العربى جاء نابليون بونابرت وعمل تعدادا للمصريين كان عددهم 2.5 مليون مسلم و160 ألف مسيحى و10 آلاف بدوى.. وهذا يوضح لنا ما حدث للمصريين من تآكل من الجوع والفقر والقتل على يد السادة العرب وكان المنطقى أن يصل عدد المصريين من عشرة ملايين بعد ألف ومائتى سنة إلى 500 مليون على الأقل.

لقد حول العرب المصريين إلى عبيد أزلاء واحتاج الأمر إلى عدة عقود من السنين حتى جاء محمد على وبدأ عصر النهضة وفى بداية القرن العشرين وبعد حركة التنوير بدأ ظهور الطبقات الاجتماعية فى مصر التى تكونت من ثلاث طبقات دنيا ووسطى وعليا واتخذت كل طبقة قوانينها العرفية وسلوكياتها وثقافتها.. ورضيت كل طبقة بما وصلت إليه وعرفت حدودها وكانت لا تتجاوز هذه الحدود إلا حالات نادرة فردية من صعود أو هبوط بعض أفراد طبقة إلى طبقة أخرى، كان الكل راضياً بما هو فيه وما حصل عليه حتى جاءت ثورة 1952..

# الفنون والآداب

الفن كان يميز مصر ويعطيها الريادة على العالم العربى ولكنه بدأ يتراجع بطريقة سريعة ولقد بدأ هذا التراجع مع أواخر السبعينيات.. فإذا أخذنا الأغنية على سبيل المثال، نجد أنها وصلت إلى قمتها حتى نهاية السبعينيات وكان رموزها مجموعة رائعة من الفنانين والشعراء والملحنين ، على رأسهم أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش وشادية وعبد المطلب وغيرهم ومن الشعراء كان هناك صلاح جاهين وأحمد رامى ومرسى جميل عزيز وعبد الوهاب محمد وغيرهم وكان من الملحنين الكثير مثل عبد الوهاب والموجى والسنباطى ومحمد فوزى وكمال الطويل، كلهم كانوا قامات عالية جعلت الأغنية المصرية تسيطر على آذان كل المستمعين العرب وعن طريقها سيطرت اللهجة العامية المصرية على العالم العربى.. فماذا حدث للأغنية المصرية؟!، لقد بدأ التدهور رويدا رويدا متسقا مع التدهور القيمى فى المجتمع المصرى وفى نفس التوقيت وبدأ ذلك بظهور أحمد عدوية حتى وصل الآن إلى سعد الصغير وبعرور وشعبان عبد الرحيم ناهيك عن كلمات الأغانى التى تأثرت بنفس التدهور، ونفس الشىء يقال عن المسلسلات التليفزيونية والمسرح والسينما، لقد كان المسرح فى أوجه فى الستينيات والسبعينيات ثم تحول الآن إلى لوحات منفصلة إما لوحات

راقصة أو لوحات تعتمد على الإفيهات الكوميدية القولية السخيفة.

ومع هذا الهبوط فى كل ألوان الفنون فى مصر نلاحظ أن الإقبال الجماهيرى عليها مازال قويا لأن جمهورها أصابه نفس التدهور القيمى الذى أصاب الفنون.

# الأسباب الحقيقية لتدهور القيم

تدهور القيم المصرية وانحطاطها أصبح ظاهرة عامة كما أسلفنا.. ورغم أننى تركت مظاهر كثيرة لهذا التدهور، ولم أشر إليها رغبة منى فى تقليل حجم هذه الدراسة، ليسهل على القارئ قراءتها، فأهملت مثلا تدهور التعليم وتدهور العلاقة بين العامل وصاحب العمل، وكذا العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة وحتى الأقارب من الدرجة الأولى، ناهيك عن تدهور الأدب وانتشار الكتب الصفراء وابتعاد الجماهير عن القراءة ، بالإضافة إلى تكون المواقف المضادة لأى شىء عن طريق السماع فقط.. تركت أشياء كثيرة ، ذلك لأن الظاهرة شاملة وعامة وواضحة لكل عين..

**لكن المهم الآن وهذا ما يجب أن نهتم به هو البحث عن الأسباب الحقيقية وراء ما حدث ونستطيع أن نحدد الأسباب الحقيقية لهذا التدهور القيمى فى النقاط الآتية:**

1- انهيار الطبقة الوسطى

2- التعليم المجانى

3- العائدون من العراق والخليج

4- الخطاب الدينى

5- غياب الفكر الاستراتيجى

هذه الأسباب اختصرناها بقدر الإمكان لأن هناك أسبابا أخرى تقترب أو تبتعد عن هذه الأسباب الرئيسية ولكنها تدخل فى إطارها.. وسوف نبدأ الآن فى شرح هذه النقاط واحدة تلو الأخرى، لعلنا فى هذا الشرح نلقى الضوء ونساهم فى كشف الحقيقة حتى تكون ظاهرة لأولى الأمر ليعيدوا صياغة أهداف جديدة، تأخذ بيد مصر والمصريين، إلى المكانة التى يستحقها شعب مصر فى العالم الحديث.

## انهيار الطبقة الوسطى

### مكونات الطبقة الوسطى:

الطبقة الوسطى تحتل مكانا وسطا بين هؤلاء الذين لا يملكون وكبار الملاك.. وتضم ضمن ما تضم موظفى الدولة وأرباب المهن الحرة والتجار وملاك الأراضى المتوسطين.. كما تضم الكتاب والأدباء ورؤساء تحرير الصحف والأطباء والمهندسين والمدرسين وضباط الشرطة والجيش.. كما تضم أساتذة الجامعات والمثقفين والفنانين.. كما تضم أصحاب المشروعات الصناعية الصغيرة ومتوسطى ملاك الأراضى من الفلاحين.. ومن سمات هذه الطبقة أنها تعتمد على عملها سواء كان عملا مهنيا أو فنيا.

### الدور الذى تلعبه الطبقة الوسطى:

لهذه الطبقة دور مشهود فى الحياة السياسية فكانت شرائح هذه الطبقة هى القاعدة الأساسية للعديد من الحركات والأحزاب السياسية، كما أنها قامت بصياغة فكر وبرامج هذه الأحزاب ابتداء من الحزب الوطنى العرابى فى سبعينيات القرن التاسع عشر إلى الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل وحزبى الوفد ومصر الفتاة..

كما ساهمت الطبقة الوسطى فى بناء القطاع الأهلى والمجتمع المدنى من خلال آلاف الجمعيات الأهلية التى تحملت مبكرا مسئولية نشر التعليم فى مصر والتصدى للدفاع عن قضايا التحرر وقضايا المرأة وحقوق الإنسان، كما كونت النقابات المهنية كالمحامين والأطباء والمهندسين والصحفيين وغيرها ونشطوا من خلال هذه النقابات بدور وطنى وديمقراطى.. وكان لهذه الطبقة دور أساسى فى إنشاء الصحف والعمل فى أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية..

كما تبنت هذه الطبقة مسئولية تحديث المجتمع وقضايا التنوير ومعالجة قضايا التعليم والثقافة والفن السينمائى.. وكل هذا كان فى النصف الأول من القرن العشرين، ثم اتسعت هذه الطبقة بعد قيام الثورة ولمدة عقدين فقط حتى أواخر السبعينيات بسبب اتجاه الدولة لتعيين الخريجين وكثرة القضايا المطروحة فى ذلك الوقت.

وكانت الطبقة الوسطى تشكل نخبة واعية تحظى بالاحترام بسبب تعليمها وثقافتها وكانت تحظى باحترام الطبقتين الدنيا والعليا، حتى إن هذه الطبقة قد ساندت ثورة 23 يوليو والتفت حول التوجهات التى طرحتها الثورة ، خاصة بالوحدة العربية ومحاربة إسرائيل.

لقد عبر مورو برجر بوضوح عن الأهمية التاريخية للطبقة الوسطى فى مصر ونفى أن تكون الطبقة الوسطى هى التى قامت بالثورة وأكد أن الجيش يحاول تمثيلها ولكنه فى الحقيقة كان يحاول إنشاء طبقة جديدة تدين بالولاء له.

وتضم الطبقة الوسطى ثلاث شرائح تتداخل مع بعضها تداخلا حيا صعودا وهبوطا.

الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، وتضم العلماء والباحثين وأساتذة الجامعات والمديرين وأصحاب المهن المتميزة كالقضاة والأطباء والمهندسين وكبار ضباط الجيش والشرطة والمديرين العامين كما تضم أصحاب المشروعات الصغيرة والتجار المتوسطين وكذلك ملاك الأراضى المتوسطة وأصحاب العقارات..

أما الشريحة المتوسطة فتضم عددا أكبر بالمقارنة بالشريحة العليا وتشمل الموظفين الذين يشغلون وظائف إدارية وفنية وإشرافية والمدرسين وموظفى البنوك .

أما الشريحة الدنيا من هذه الطبقة فتضم صغار الموظفين فى قطاعات الدولة المختلفة كما تضم صغار المزارعين وصغار المشتغلين بتجارة التجزئة.

## قيم الطبقة الوسطى

يطلق كثير من المفكرين على قيم الطبقة الوسطى أنها «ميزان المجتمع» بمعنى أنها الميزان القيمى للمجتمع.. لماذا..!! لأنها قيم وسطية بين العليا والدنيا.. إضافة إلى ذلك أنها قيم جادة بمعنى أنها تتسق مع ما ينبغى أن يكون فى المجتمع.. فهى قيم متسامحة وفى نفس الوقت إيجابية..

فهى تقدس العمل.. كما تقدس الرزق الحلال والقناعة بما تحصل عليه من رزق.. كما أنها قيم طموحة ودائما ما كانت تسعى للحصول على رضا الآخرين عليها ، خاصة من هم من الطبقة الدنيا فهى قيم غير ظالمة وغير متسلقة وتضفى على أصحابها تواضعا ملموسا.

وحتى نظرة الطبقة الوسطى للدين تبدو أيضا نظرة وسطية فيكتفى أصحابها بتأدية الفروض دون غلو فى الحواشى والتفريعات الفقهية، فالدين عندهم يهتم أكثر بالسلوك أكثر من اهتمامهم بالعبادات.. ورغم ذلك فإنهم يحرصون على أن يظهروا بمظهر المشجع للقيم الدينية المتعارف عليها اجتماعيا كمساعدة الفقراء وتقديم العزاء وتأدية الفروض الخمسة لكن بدون تشدد..

وتهتم الطبقة المتوسطة بالتعليم والثقافة كقيمة حضارية ينبغى أن يتزود أفرادها بها وكذلك الأبناء وقد تجد أسرة متوسطة تنفق نصف دخلها على التعليم والثقافة..

أما عن القيم الوطنية فلطالما كانت هذه الطبقة تعتبر نفسها مسئولة عن حرية الوطن والدفاع عن أرضه ولطالما ساهمت بالثورات منذ ثورة 19 ومظاهرات طرد الإنجليز من مصر وكتابة المنشورات التى تحث على ذلك، فهذه الطبقة هى التى كانت تقود المجتمع دائما للمطالبة بالحرية والاستقلال.

**الفرق بين الطبقة المتوسطة قديما وحديثا**

الطبقة المتوسطة حتى السبعينيات يدخل فى فهمها ومحاولة تحديدها المادة والقيم.. كلتاهما كانت عنصرى الطبقة المتوسطة ولا يمكن الفصل بينهما..

أما الطبقات الآن فلا نستطيع أن نشبهها بالأولى لأن هذه الطبقات فى العصر الحاضر يمكن تقسيمها ماديا فقط ونستطيع أن نحدد ذلك من خلال الدخل المادى لأفراد كل طبقة، أما إذا حاولنا تقسيمها قيميا فلا نستطيع لأن القيم فى الطبقات الثلاث حاليا متشابهة إلى حد بعيد، حتى إننا نجد قيم الطبقة الدنيا ماديا موجودة فى الطبقتين العليا والوسطى فى الوقت الحاضر، لذلك فعندما نتحدث عن قيم الطبقة الوسطى التى انهارت لا نقصد بذلك أنها تنطبق على قيم الطبقة المتوسطة ماديا الآن وهذا للتنويه.

**كيف انهارت الطبقة الوسطى..!**

يبدو أن السبب الحقيقى لانهيار الطبقة الوسطى هو ثورة 1952.. كيف؟

نستطيع أن نحدد أن 90٪ من رجال الثورة كانوا من الطبقة الوسطى المتدنية، ولقد قسمنا الطبقة الوسطى إلى ثلاث طبقات داخلية فلا يمكن أن يستوى كل أفراد الطبقة فى مستوى اقتصادى واجتماعى واحد لذلك كان تقسيمها إلى طبقة وسطى عليا ووسطى متوسطة ووسطى دنيا وقلنا ان الطبقة «الوسطى دنيا» كانت أقل من زميلتيها دخلا وأدنى فى المستوى الاقتصادى والاجتماعى.. وكانت فى نفس الوقت هى الأقرب إلى الطبقة الدنيا العاملة المكونة من العمال والفلاحين المعدمين.. ولقد تربى الرجال الذين قاموا بالثورة على قيم الطبقة المتوسطة الأعلى منهم قليلا لكن طموحاتهم لاجتياز طبقتهم «المتوسطة الدنيا» كانت كبيرة.. وعندما قاموا بالثورة كان أول ما فعلوه أنهم انقلبوا على كل قيم الطبقة المتوسطة.. خاصة قيم الحرية وحرية الاختلاف وقبول الآخر والديمقراطية والأحزاب. انقلب رجال الثورة على قيم الطبقة المتوسطة ولم يكتفوا بذلك بل أدخلوا رموز هذه الطبقة إلى السجون والمعتقلات من الكتاب والمفكرين والسياسيين..هذا شىء.

الشيء الثانى.. أنهم لم يستعينوا بأى من أفرادها لقيادة المجتمع بل استعانوا بأفراد من الطبقة العاملة «الدنيا» وساعدوهم بعد حصولهم على التعليم المجانى باحتلال المناصب التى تثبت قواعدهم فى القرى والمراكز والمدن ليكونوا رجالهم الذين يعتمدون عليهم فى تحقيق مشروعهم. الذى لم يكن حضاريا وإنما كان مشروعا عشوائيا ذا شقين.. الشق الأول كان عربيا وهو دعوى القومية العربية والتحرر من الاستعمار.. والشق الثانى كان داخليا وهو تمهيد الأرض لسلطانهم الذى لن يتحقق سوى بالقضاء على الديمقراطية والليبرالية وهما شعار الطبقة الوسطى التى كافحت من أجله منذ بداية القرن العشرين وحتى قيام ثورة 1952.

لقد استعان رجال الثورة بالطبقة الدنيا المكونة العمال والفلاحين فى تمرير مشروعها وإحكام السيطرة على المجتمع المصرى كله.. ولكن لماذا الطبقة الدنيا.. والإجابة لأن ، هذه الطبقة لا تتمتع بطموحات عالية كالوصول للحكم مثلا ، كما أنها طبقة عاشت مئات السنين من الظلم والاستعباد.. بمعنى أنها تعودت على العبودية لصاحب الأمر وكذلك التهليل له والتظاهر من أجله.. إنها طبقة تسعى لمصالحها المادية فقط دون أى طموح سياسى أو أى إبداع حقيقى.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى .. فبعد أن قضت الثورة على رموز الطبقة المتوسطة وأدخلتهم المعتقلات أو كممت أفواههم قامت بحرمانهم من تولى القيادات المجتمعية ، خاصة فى شركات القطاع العام تم فى الميديا الإعلامية وحلت مكانهم قيادات موالية لها من الجيش أو من الطبقة العاملة..

ثم قامت الثورة بإفساد التعليم الذى أصبح يعتمد على التلقين الببغاوى دون الإبداع والابتكار وقامت بعد ذلك بالسيطرة على الإعلام وتسخيره لمشروعها القومى العروبى الذى لاقى تجاوبا ضخما من الطبقة العاملة..

وكان هذا هو السبب الحقيقى للقضاء على الطبقة الوسطى وقيمها بجانب أسباب أخرى صغيرة كلها متعلقة بهذا السبب.. وانهارت قيم الطبقة الوسطى وظهرت قيم جديدة.

# التعليم المجاني

كان شعار «التعليم كالماء والهواء» هو شعار الثورة عند قيامها.. وهو شعار جيد نجله ونحترمه ولكنه فى الحقيقة لم يزد على كونه شعارا.. لماذا؟ لأنه اهتم بالكم دون اهتمامه بالكيف وهذا له قصة أخرى وموقف آخر للتحليل والنقد..

ولكن ما يهمنا هنا كيف طبقت ثورة 1952 هذا الشعار؟!!

لقد صدر قانون بتعليم كل فرد وصل إلى سن التعليم 6 سنوات بالمدارس الحكومية.. وتبع هذا عقاب تم تفعيله مدة صغيرة على أولياء الأمور الذين كانوا يرفضون تعليم أبنائهم..

اضطر أبناء الطبقة الدنيا لإدخال أولادهم إلى المدارس دون رغبة منهم لحاجة الفلاحين لأبنائهم للعمل فى الحقل .. وكذلك إلحاق العمال أولادهم بنفس المهن التى يتقنها آباؤهم.. لكن الإلحاح من قبل الدولة على تعليم أولاد هذه الطبقة ومعاقبة المتسربين منهم من التعليم أدخل أبناء هذه الطبقة إلى المدارس بمختلف ظروفهم الاجتماعية.. حتى إنها لتشجيع هذه الطبقة ورفعا للحرج عنها من ضعف المستوى الاقتصادى فرضت زيا موحدا لجميع الطلبة حتى لا تظهر الفروق الاقتصادية داخل المدرسة.. هذا كله جيد.

لكن من ناحية أخرى فلم يكن المنهج التعليمى مناسبا لتخريج خريج على مستوى قيمى جيد.. وابتدأ التعليم يخرج من المدرسة إلى الدروس الخصوصية وفقدت المدرسة الدور التربوى الذى أعدت له..

## استعانة الثورة بالطبقة العاملة

ومن ناحية أخرى وكما قلت سابقا فقد حرصت الثورة على الاهتمام بتعيين الخريجين فى الوظائف العامة.. وبدأ يحتل أبناء الطبقة الدنيا لأول مرة الوظائف الحكومية فى منتصف الستينيات وحتى الآن.. بالإضافة إلى الاستعانة بهذه الطبقة بالذات فى حراك الثورة السياسى بداية من الاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى ثم الحزب الوطنى وحتى الآن..

لا ضرر فى ذلك.. ولكن الضرر الحقيقى هو أن الخبراء السياسيين فى النظام المصرى التابع للثورة كانوا على يقين ووعى كاملين بأن أنسب الرجال الذين ينبغى للنظام الاعتماد عليهم هم رجال الطبقة العاملة.. لذلك كان الإصرار على أن يكون نصف أعضاء مجلسى الشعب والشورى والمجالس المحلية هم من العمال والفلاحين..

## أين الخطأ؟!

قد يسأل البعض وما هو الخطأ فى استعانة النظام بالطبقة العاملة فى تقلد المناصب السياسية والاعلامية والاقتصادية فى مصر؟

الخطأ يكمن فى أن هذه الطبقة عندما تعلمت وعندما تقلدت الوظائف لم يتم إعدادها ثقافيا ولا سلوكيا ولا قيميا لتقلد هذه المناصب.. لقد احتلت مناصبها ولكنها لم تتخلص من قيم الطبقة العاملة التى تعودت على العبودية مئات السنين..

لقد سمحت الثورة والحكومات التابعة لها لأبناء الطبقة الدنيا بتقلد المناصب الحساسة فى الدولة وخاصة ما يتعلق منها بالميديا الاعلامية ثم سيطر أفرادها على قطاع الأعمال ومؤسساته سواء كان رؤساء هذه الشركات من الجيش أو من أبناء الطبقة ذاتها ولا يخفى على أحد أن غالبية رجال الجيش ليست مؤهلة علميا لتولى مناصب اقتصادية مهمة كإدارة مؤسسة صناعية أو تجارية وفجأة مع هذا الزحف للطبقة الدنيا على جميع وظائف المجتمع بدأ انسحاب الطبقة الوسطى الحقيقية فمنهم من هاجر من مصر ومنهم من تقوقع داخل حياته الشخصية وانسحب من المشاركة المجتمعية والسياسية والاقتصادية لأنه لم يتعود على التفكير العشوائى ولم يستطع التأقلم مع القيم السلبية الجديدة التى سيطرت على المجتمع فى كل المجالات..

# العمل في دول الخليج

مع بداية الثمانينيات بدأ العمال والموظفون السفر إلى دول الخليج والعراق وليبيا للعمل والبحث عن المال.. حتى وصل العاملون فى العراق مثلا إلى أكثر من خمسة ملايين مصرى ومثلهم فى دول الخليج وليبيا..

ثم عادت هذه الأيدى العاملة من العراق والخليج محملة بالمال والثقافة البدوية..

**أولا:** كان كل من جاء من العراق وهم يزيدون على خمسة ملايين مصرى هم من أبناء الطبقة العاملة من الفلاحين والعمال جاءوا ومعهم الثروة وثقافة البلاد التى جاءوا منها.

بالثروة استطاعوا أن يبنوا البيوت الحجرية بدلا من البيوت المبنية من الطوب اللبن، واشتروا السيارات نصف النقل واشتروا الأراضى، وبدأت تطلعات هذه الطبقة تزداد وأصبحوا منافسين للطبقة المتوسطة، بل مناهضين لها، وبدأت مشاعر التحدى لهذه الطبقة تظهر واضحة خاصة فى الريف حيث رأينا أبناء هذه الطبقة يرتدون العباءات الخليجية ويدخلون بها إلى المآتم يجلسون فى الأماكن المخصصة لكبار القوم من الطبقة المتوسطة وكانت نظرات التحدى واضحة فى عيونهم..

وبدأ المال يلعب دورا واضحا فى تحقيق المساواة بين الطبقتين ماديا فقط.. لكن هذا التفوق المادى لم يصاحبه تفوق قيمى مثل ما تتحلى به الطبقة المتوسطة..

لقد تصورت هذه الطبقة «الدنيا» أن المال وحده قادر على تعويض هذه الطبقة عن الظلم الذى لاقته ردحا طويلا من الزمن..

وخلاصة الأمر.. أنه رغم التفوق المادى الذى تمتعت به الطبقة الدنيا من السفر إلى دول الخليج والعراق وليبيا.. حيث وصل عددهم إلى حوالى الـ 13 مليون نسمة إلا أنهم لم يتخلصوا من قيم هذه الطبقة وأقصد بها القيم السلبية التى تجر المجتمع إلى الخلف لا إلى الأمام بالإضافة إلى ذلك فإنهم عادوا وهم يحملون ثقافة جديدة كان الدين هو وعاؤها ومعروف سلفا نوع هذه الثقافة.. التى كانت تميل إلى التشدد الدينى ، خاصة فيما يتعلق بالمظهر وما ترتديه النساء..

والمعروف على كل مستويات الدراسات الاجتماعية والنفسية أن الدين دائما وأبدا كان الملجأ لهذه الطبقة للاحتماء به ضد الفقر والظلم والقهر..

فإذا أضفنا سيطرة التيار الدينى فى مصر على الشارع المصرى مستخدماً نفس الخطاب الدينى الذى يعتمد على فقه البداوة والذى لاقى استحسانا من الطبقة العاملة لأنه يتفق مع قيمهم من ناحية ومع الثقافة التى عادوا بها من الدول العربية.. فإننا نجد تشكيلا مجتمعيا جديدا بدأ ظهوره منذ بداية الثمانينيات ومازال مسيطرا حتى الآن.

## استعانة الحكومات بالطبقة العاملة

كما قلنا وأسلفنا أنه منذ قيام الثورة نراها قد اعتمدت فى فكرها الاستراتيجى على فئة جديدة تسير فى كنفها وتصفق لها وتحشدها وقت الحاجة لتمرير مشروعها الثورى ، خاصة ما يتعلق منها بالقومية العربية وتم تخصيص 50٪ من العمال والفلاحين فى المجالس النيابية والمحلية..

وبدخول هذه النسبة إلى المجالس النيابية نجدها وقد استعانت بأفراد من طبقتها ولكسب رضاها اهتمت هذه النخب المختارة حديثا بتقليد أبناء طبقتهم فى المناصب المميزة على مختلف توجهاتها فرأينا أبناء العمال والفلاحين يحتلون المناصب السياسية فى الحكم المحلى والمحافظات والقطاع العام ولم يكتفوا بذلك بل تم تصعيدهم إلى رئاسة تحرير الصحف وإعداد البرامج فى التليفزيون وبدأ أبناء هذه الطبقة فى الانتشار السرطانى فى كل أوجه الحياة..

نفس الشىء حدث فى رجال الأعمال فبينما كان هناك قبل الثورة أبو رجيله وطلعت حرب والبدراوى وعبود وغيرهم الذين أقاموا المصانع والبنوك ووضعوا البنية الأساسية لتقدم حضارى، وجدنا رجال الأعمال الآن ينهبون ثروات مصر ويذهبون بها فارين إلى أوروبا وبدأ ظهور ما يسمى بالاقتصاد الاسلامى وتشغيل الأموال وبدأنا نرى قضايا الفساد تنتشر بين أوساط رجال الأعمال من أبناء هذه الطبقة، ومع استمرار سيطرة الطبقة العاملة ماديا واقتصاديا على كل جوانب المجتمع ظهر الطبيب الفاسد الذى لا يتقن عمله ويترك الآلات الجراحية فى جسد المريض وكذلك الطبيب الذى يسرق أعضاء المرضى.. والمهندس المرتشى ومدير البنك المرتشى والمدرس الذى يبيع كرامته للتمليذ من أجل الدروس الخصوصية..

والأشد على المجتمع المصرى كان فى النخبة.. النخبة السياسية والاقتصادية والاعلامية والدينية لقد أصبحت كل هذه النخب تتمتع بقيم الطبقة العاملة حتى لو كان بعضها من الطبقة الوسطى أوالعليا.. لماذا..؟ لأن المعلوم فى علوم الاجتماع وعلم تفسير السلوك أنه إذا سيطرت طبقة اجتماعية على المجتمع فإن قيمها وأخلاقها وثقافتها هى التى تسود على باقى الطبقات وهذا هو ما يحدث فى مصر الآن..

# أثر الخطاب الديني على القيم

المعروف أن الدين يعلى من شأن القيم المجتمعية بل ويحافظ على تنقيتها من السلبيات.. وهذا هو جوهر الأديان السماوية منها وحتى البشرية.. ولكن ما حدث فى مصر فى الثلاثة عقود الأخيرة كان مغايرا للاعتقاد السابق..

فكما قلنا من قبل إن هناك فرقا كبيرا بين الدين كنص قرآن أو إنجيل أو توراة وبين الثقافة المصاحبة له.. لأن هذه الثقافة ترتبط دائما بالمخزون الثقافى لرجال هذا الدين.. ولما كان الدين الإسلامى قد نشأ فى بيئة بدوية لها مخزونها الثقافى المغاير تماما للمخزون الثقافى للبيئة الزراعية أو البيئة الصناعية أو حتى البيئة الجبلية.. وعندما انتشر الدين الإسلامى فإنه انتشر عن طريق رجال هذه البيئة سواء كانوا من الفقهاء أو من الفاتحين لذلك مثلا رأينا الوثيقة العمرية التى أصدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وطبقها عمرو بن العاص فى مصر تخالف فى نصوصها القرآن الكريم ونفس هذه الوثيقة تم تطبيقها على كل الأقاليم التى فتحها العرب.. ورغم أن أمير المؤمنين كان من الرجال الذين يشهد لهم بالعدل وكان من أقرب الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه رغم ذلك أصدر هذه الوثيقة العمرية نسبة إليه وكانت من الشدة بمكان على الشعوب التى تمت السيطرة عليها وتخالف تماما القرآن الكريم والسنة الصحيحة..

فإذا كان هذا قد حدث من أمير المؤمنين فما بالك بمن جاء بعده من الفقهاء أو الفاتحين أو السياسيين الذى يقلون شأنا عن أمير المؤمنين.. لقد كانت هذه الوثيقة صادرة عن مخزون ثقافى خاص بالعرب..

هذا على سبيل المثال ونستطيع أن نقيس على ذلك كل الأفكار القادمة من البلاد الصحراوية التى حملها معهم أبناء الطبقة الدنيا إلى مصر بالإضافة للخطاب الدينى الذى تصدى له التيار الدينى فى مصر أيضا والذى يحمل نفس الأفكار «فقه البداوة».

ولقد اعترف أحد قادة الإخوان المسلمين بأنهم ، أى الإخوان ، كانوا حريصين على أسلمة المجتمع المصرى.. لكنهم أسلموا المجتمع على طريقهم وعلى نفس الأفكار التى تحدثنا عنها..

لقد انتشر الحجاب بل والنقاب على رؤوس جميع المصريات وتحولت جميع مفاتيح الراديو والتليفزيون بل والموبايلات أيضا إلى إذاعة القرآن الكريم.. ورأينا القرآن يتلى فى المساجد والمترو والأتوبيس والميكروباص والمحلات التجارية وفى البيوت ليل نهار، وانتقلت العبارات الدينية إلى المسلسلات التليفزيونية، ورأينا لاعبى كرة القدم يسجدون عند إحراز الأهداف حتى سمى الفريق القومى بـ «فريق الساجدين» بل وانتقل الدين إلى كل مناحى الحياة حتى رأينا المصلين يفترشون طرقات المكاتب التى يعملون بها..

حدث كل هذا ولكن رغم ذلك رأينا الهبوط القيمى يشد المصريين جميعا إلى الخلف ورأينا الفساد الأخلاقى لبس ثوبا سرطانيا ينخر فى جميع قواعد المجتمع..

فماذا حدث..؟؟

لقد تمت أسلمة المجتمع بطريقة سلبية جعلت المصريين جميعا يتجهون إلى السماء ويبعدون عن أرض الواقع حتى إنهم أنزلوا الله سبحانه وتعالى إلى الأرض حتى يقوم بالعمل بدلا منهم فإذا أرادوا رزقا سألوا الله وإذا أرادوا منصبا سألوا الله وإذا أرادوا شقة سألوا الله حتى إذا أرادوا رشوة أو فسادا سألوا الله حتى لا ينكشف حالهم والطالب إذا أراد نجاحا سأل الله حتى لاعب الكرة إذا انهزم فريقه أرجعه لعدم توفيق من الله وإذا أحرز هدفا أرجعه أيضا لله.. وقد يكون هذا جيدا إذا كان الإنسان يدرك الوظيفة التى خلقها الله من أجله وهى عمارة الأرض والسعى فيها وإتقان العمل.. لكن الذى حدث ان المصرى أصبح غير مهتم بالعمل أو بالسعى أو بالبحث عن الرزق متعللا بأن إرادة الله هى التى سوف تحقق له النجاح أو الفشل..

نفس الشىء ابتعد المواطن المصرى عن المشاركة المجتمعية والسياسية ولم يعد قادرا على ضرورة تحقيق الذات .. أو قادرا على الثورة فى وجه الظلم.. وأصبح يردد المقولة التى أكد عليها الخطاب الدينى مثل «كيفما تكونوا يولى عليكم» و«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» و«إن ما يحدث لنا نستحقه لأننا بعيدون عن الله».

واستسلم المصرى لقضاء الله ينتظره وقتما يأتى دون بذل الجهد أو العمل..

هذا الانسحاب من الأرض إلى السماء لم يمنع المصريين من ارتكاب ما حرم الله من الفساد والرشوة والنصب وأكل مال اليتيم وعدم توريث الأنثى وكل السلبيات الموجودة التى يمكن أن يرتكبها إنسان.

وقد ندم الإخوان المسلمين أشد الندم على ما فعلوه فى المصريين وقد تجلى ذلك عندما قامت أحداث غزة وطالب حسن نصر الله بانقلاب المصريين والجيش على النظام.. دعت جماعة الإخوان المسلمين الشعب المصرى لمظاهرة ضخمة ضد الحكومة لموقفها من فتح معبر رفح.. فلم يستجب المصريون لهذا النداء.. مما دفع بعض قادة الإخوان المسلمين للقول بإننا أسلمنا المصريين بطريقة خاطئة وكان يجب أن نؤسلمهم سياسيا حتى يكونوا جنودا لتحقيق أهدافهم.

# ثورة 25 يناير في مصر

أثارت الثورة اعجاب العالم كلة لعدة أسباب اولها سلميتها وثانيها انها اجبرت النظام السياسى على تنفيذ أهدافها والثالث انها اعطت نموذجا حضاريا متفوقا عن كل الحضارات الحالية فلا حرصها على تنظيف آثارها فى الشوارع والميادين ، وكذلك اشتمالها على الكثير من الفن والإبداع والابتكار فى التعبير عن أهدافها فرأينا فى الميادين الرسم والمسرح والرقص والشعر والغناء والخطب واللافتات المتحضرة والساخرة .

ومن هنا كان أعجاب العالم بها ، هذا الإدراك الذى جعل المؤسسات الثقافيه والحقوقيه ومراكز البحوث العالمية تراجع مواقفها حول مصر والمصريين، وتبدأ من جديد عملية الربط بين ما يحدث فى مصر الأن وما حدث فى مصر القديمة حيث بنى المصريون أقدم وأطول واعظم حضارة فى التاريخ ، وتم ربط هذه المؤسسات بين ما يحدث للمصريين الآن وبين جيناتهم الوراثية ..

وهذا ما دعا الرئيس أوباما أن يقول :«إنهم فى الولايات المتحدة يجب أن يربوا ابناءهم ليكونوا مثل الشباب المصرى» ، أما الرئيس النمساوى فقال : المصريون هم أروع شعب على الأرض ويستحقون جائزه نوبل للسلام ..

وقال رئيس وزراء بريطانيا : أن علينا أن نفكر جديا فى تدريس الثورة المصرية فى المدارس .

أما رئيس وزراء إيطاليا فقال : لا جديد فى مصر .. فالمصريون يقومون بكتابة التاريخ كالعادة ..

أما رئيس وزراء النرويج فقال : اليوم كلنا مصريون ..أما شبكة سي .ان .ان الأمريكية فقالت : لأول مرة نجد شعبا يقوم بثورة وينظف الشوارع بعدها .

وإذا توقفنا عند ما قالته الشبكة الأمريكية فنرى أنها توقفت عند شيء نادر لم يحدث فى أى ثورة فى العالم وهو أن يقوم شعب بثورة وحين يحقق اهدافه فإنه لا يحمل اشياءه فقط ويعود إدراجه ولكنه يحرص على أن ينظف الميدان ليعيده أروع مما كان وهذا ما أكد أن الثورة لم تكن سلمية فقط وإنما كانت حضارية أيضا وتعبر عن مخزون حضارى رائع عاش فى جينات المصريين من آلاف السنين .. وهذا يثبت أن ما تقدمت به فى بداية الكتاب من حديث عن الهوية المصرية المتحضرة قد حدث بالفعل بعد الثورة ..

فإذا انتقلنا إلى إذاعة ال بي.بي.سي اللندنية نجدها قد أفردت ساعتين كاملتين عن ما حدث فى ميادين مصر من ألوان الإبداع المتحضر حيث الرسم والمسرح والغناء والرقص والكاريكاتير والشعر ناهيك عن طريقة التعبير باللافتات الراقية والذكية .

## من قام بالثورة ..!!

هذا هو السؤال المهم بل الأهم ، إذا كنا نحاول توصيف ثورة يناير المصريه ، وكما قلت سابقا أن « الحقيقة هى أم المعرفة » فيجب ان تكون واضحة جليه وخاصة أننا عشنا الأحداث ساعة بساعة ويوماً بيوم ولقد أشرت فى نفس هذا الكتاب عندما كنت أتحدث عن الطبقة الوسطى واصفا مقوماتها ومحللا صفاتها وكيف أنها هى الطبقه الوحيدة المنوط بها تقدم المجتمع وتحضره وتطوره.. واشرت الى ان رجال الجيش بعد ثورة 1952 قضوا على هذه الطبقه واستبدلوها بالطبقة الدنيا التى يحكمها فقه المصلحة لتتولى القيادة المؤثرة فى المجتمع المصرى ورأينا أثر هذه الطبقة على مصر من زيادة الفساد والاستبداد وزيادة التخلف الحضارى فى كل مناحى الحياة فى مصر .

وقلت أن هناك بدايات جديدة لتكوّن طبقة وسطى جديدة تتشكل حاليا من الشباب الذى تخرج من مدارس اللغات والجامعات الخاصة والجامعات الأجنبية الذى تشكل منهم مجموعات كبيرة انضمت الى منظمات المجتمع المدنى حتى بدأ بعضهم يكون مجموعات تعمل فى وسائل شبكات الاتصال المجتمعى مثل الفيس بك وتويتر وتتواصل فيما بينها ..

هؤلاء الشباب كانوا هم الشعلة الحقيقية لثورة 25 يناير ولقد اختار قادة الثوره من الشباب شبكات التواصل الاجتماعى على الانترنت لتكون غرفة عمليات الثورة وبدأت القصة من حركة 6 ابريل التى نقلت نقاشات الـ « فيس بوك »

الغاضبة الى الشارع وكان مجموع شباب هذه الحركة المتواصلين على الأنترنت حوالي 120 ألفا .. نزلت هذه الحركة الى الشارع مرات عديدة وأزعجت الأمن وخاصة ماحدث فى المحلة الكبرى وتلى هذه الحركة ما يسمى صفحة « خالد سعيد » الشاب السكندرى الذى قتله رجال الشرطة والتى انضم لها أكثر من 140 الف شاب وشابة وقامت بمظاهرات عديدة تتحسس خطوات حركه 6 ابرايل .

أما شباب العداله والحرية فكان تواصلهم أعمق وأكثر ادراكا للأهداف حيث لم يكن سبب قيامها شخص بعينه قتل أول ظلم فى مكان ما ولكن كان هدفها الأبعد هو تحرير مصر من الاستبداد وكان افرادها على ثقة من المستقبل وانضم لهذه الحركة أكثر من 200 الف شاب ، ثم جاء البرادعى بالهالة المحيطه به ونزل الى الشارع مباشرة والتف حوله شباب الثلاث حركات السابقة مع بعض شباب الأحزاب الذين لم تعجبهم قياداتهم فى الوفد والتجمع والجبهة وانضموا الى الأخرين ..أما حركة البرادعى للتغيير كانت تعيش على الأرض، فجاءت بمن كان يتواصل على الشبكة الهلامية الى أرض الواقع والتحمت الحركات الأربع لتقوم بمظاهرات محدودة فى الميادين والشوارع ووجدت مقاومة جبارة من قوى الأمن حتى انها فجأة ابتعدت عن الشارع لتحضر لما هو أبعد وأقوى ونحن فى هذا السرد لا نستطيع أن نغفل حركة كفاية رغم محدوديتها الإ أنها كانت حركه شجاعة وتسير على الارض، تتظاهر وتتحدى قوى الأمن على قدر طاقتها وكانت هذه الحركة هى اقدم هذه الحركات ..

وعند تحليل ما حدث وبالنظر الى اعضاء هذه الحركات الاربع المؤثرة فإننا نستطيع أن نؤكد ان اعضاءهم جميعا كانوا من الطبقة الوسطى الجديدة ولم يثوروا من أجل مطالب فئوية مطلقا بل كانت ثورتهم كلها مطالب سياسية تهدف الى تحقيق الحريه والعدالة والقضاء على الفساد وتغيير الدستور وإزالة النظام بكل ما فيه من مساوئ وفساد وتخلف حضارى .. وكان أفراد هذه الحركات الاربع ميسورى الحال وكان بعضهم يعيش حياة مرفهة وكان يظهر ذلك من ملابسهم ووظائفهم وتصرفاتهم وسلوكياتهم فهم إذن طبقى وسطى جديدة ونستطيع أن نقول أن عدد المتواصلين منهم على شبكة الفيس بوك وتويتر حوالى نصف مليون شاب وشابة من جملة من يستخدم الانترنت فى مصر حوالى 30 مليون شخص .

نزل هؤلاء بدايةً الي دار القضاء العالي ولما شعروا بقوة العدد زحفوا علي ميدان التحرير كانوا حوالي 250 الف شاب وفتاة يوم 25 يناير وكانوا وحدهم فى الميدان وظلوا صامدين أمام العنف الأمنى لمدة ثلاثة أيام كاملة حتى انضم لهم باقى جموع الشعب.

## هل شباب الثورة علمانيون :

إذا انظرنا الى الوعى الجمعى عند الشباب المتواجدين فى ميدان التحرير 25 يناير ذلك الوعى الذى تجسد فى مطالبهم التى التى اعلنوها وهى كلها تصب فى خانه واحدة «دوله مدنية لا عسكرية ولا دينية »

وكان هذا المطلب يطالب به العلمانيون منذ عشر سنوات وحتى الآن وهذا المطلب ينسجم تماما مع الفكر العلمانى الذى يرفض دوله العسكر ودوله رجال الدين ففصل الدين عن الدوله والحكم هو فى الأساس يشكل الفكر النقى الذى قامت عليه العلمانية .. ومن ناحية أخرى اذا نحن نظرنا الى قيادات الشباب والقيادات الاكبر سنا التى شاركت فى الثورة سوف نجد انهم من أصحاب الفكر العلمانى مثل د.عمر حمزاوى ود.عمرو الشبكى و د.محمد البرادعى ود .محمد ابو الفار والمخرج خالد يوسف وممدوح حمزة وداود عبد السيد والممثل عمر واكد والشباب زياد العليمى ووائل غنيم وسالي سامي وشادي الغزالي حرب وناصر عبد الحميد اسراء عبد الفتاح وغيرهم، بالإضافة الي كل أعضاء حركة كفاية ود.إيهاب خراط ومن رجال النخبه سوف نجد رئيس الوزراء عصام شرف د.حازم الببلاوى، كل تلك القيادات الشبابية والأكبر سنا مؤمنون بالفكر العلمانى الذى يؤكد على الدولة المدنية الحديثة ..

هذا ما أردت أن أؤكد عليه حتى لا تضيع الحقائق وينسى الناس أن هذا التيار يستحق الاحترام لأنه قاد المجتمع إلى عصر جديد وخلص مصر من قيادات وأنظمة تقهقرت بمصر إلى الخلف عشرات السنين .

# ثقافة القطيع أثناء الثورة

يقول عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد : «أن السواد الأعظم –يقصد القطيع » يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع ، فيتختلطان فى مضايق أذهانهم من حيث التشابه فى استحقاق التعظيم وعدم المؤاخذة على الأفعال ، وبناء عليه لايرون لأ نفسهم حقا فى مراقبة المستبد لانتقاء النسبة بين عظمته ودناءتهم ، وبعبارة أخرى يجد القوم معبودهم وجبَارهم مشتركين فى كثير من الحالات والأسماء والصفات ، وهم هم ،ليس من شأنهم أن يفرقوا مثلا بين الإله والحاكم بأمره وبين المنعم وولى النعم وبين جل شأنه وجليل الشأن ، وبناء عليه يعظمون الجبار تعظيمهم لله بل يزيدون تعظيمهم على التعظيم لله لأنه حليم كريم ولأن عذابه مؤجل ، أما انتقام الحاكم الجبار فعاجل حاضر . فتصبح كما يقال عقولهم فى عيونهم ، يكاد لايتجاوز فعلهم المحسوس ، حتى يصح أن يقال فيهم : لولا رجاؤهم بالله وخوفهم منه فيما يتعلق بحياتهم الدنيا لما صلوا ولا صاموا .

انتهى قول المفكر العظيم عبد الرحمن الكواكبى ونحن إذا قرأنا هذه العبارات مرة أخرى سنجد وكأنه عاش معنا الثورة الحالية رغم انه توفى من مائه سنه ، ونستطيع بسهوله أن نطبق ما قاله الكواكبى على ما حدث فى مصر أثناء الثورة وبعد الثور، واليكم التفاصيل ...

### النخب الإعلامية :

قلت من قبل أن نخبنا الإعلامية الذين يتولون إدارة الآلية الإعلامية ، اختارتهم السلطة من الطبقة الدنيا حيث تحكمهم المصلحة فقط لا غير وهم أسهل الناس خضوعاً للحكام وأقدرهم على النفاق طالما يحقق ذلك مطالبهم المادية ، وكما حدث فى تونس قد حدث فى مصر وليبيا والبحرين واليمن وسوريا حيث رأيناهم أثناء الثورة ينفذون ما أمرهم به الأمن والإعلام الحكومى تضليل الناس وتكون البداية دائما بالمصطلحات والجمل الأتيه .

إن البلد مستهدف من قوى أجنبيه ..أن أعوان هذه القوى يدعمون الثوار بالمال و أحيانا بالسلاح ..إذا انتهيا لحكم فإن التيار الديني سوف يسيطر على الحكم ..إن الحاكم الحالى أفضل من الفوضى ...

ثم يعددون مزايا الحاكم ويشوهون قادة الثورة ، ويفردون براجمهم الى مكالمات يدعون انها من خارج الأستوديو بينما هى من داخله أو من أفراد داخل النظام فى مدن أخرى .. ولا يتورعون عن إثارة الرعب فى قلوب الأسر فينشرون الشائعات والأكاذيب عن عمليات القتل والسرقة والبلطجة .. ويتحدثون عن أمريكان وأجانب يقفون فى الميادين وسط الثوار ووجبات كنتاكى وفى الصحف نفس الحال وجدناه من رؤساء تحرير الكثير من الصحف وكتاب أصحاب أعمدة ثابتة يكررن ما اتفقوا عليه مع النظام .

لقد افتقدت هذه النخب قيم العمل المهنى وقيم المواطنة وكل قيم الإنسانية عندما يجدون الثوار يعتدى عليهم من بلطجية النظام بالضرب والقتل ويستمرون رغم ذلك فى التطبيل لنظام فاسد جائر ..أليسوا من القطيع أذن ..

وعلى نفس المستوى رأينا باقى القطيع داخل البيوت يتسمر أمام شاشات التلفزيون يراقب وهو غضبان وثائرا على مصالحه الضيقة فمنهم من لا يستطيع فتح دكانه أو مقهاه أو يذهب الى عمله أو يتأفف لأنه لم يجد الخبز الذى تعود عليه أو السجائر التى يدخنها .

نرى هؤلاء يقول مع كل تنازل للحاكم المستبد : وماذا يريد الثوار أفضل من ذلك؟.!! وتردد هذا القول فى أول مرة أعلن فيها حسنى مبارك أول تنازل ثم ترددت هذه المقولة مع كل تنازل يقدمه الرئيس بعد ذلك .. ماذا يريدون أفضل من ذلك ..؟ هذه المقولة أوجعت قلوبنا جميعا لتحريرهم من الخوف والقهر والظلم ..ولم يكشف هؤلاء بذلك بل ساهموا هم أيضا فى زيادة الشائعات وترديدها بل كانوا يزيدون عليها ليزيدوا سخط الناس ..

ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا إلى قوى الثورة المضادة عندما علموا أنهم سيحصلون على أموال من رجال الأعمال والقيادات المستفيدة من الحكم الحالى ... هكذا فعل القطيع سواء كان من النخب أو من عامة الشعب أثناء الثورة .

أما باقى القطيع فى الدول العربية التى لم تصبها الثورات بإيجابيتها فقد أخذت على عاتقها الاتصال بوسائل الإعلام فى الدول المشتعلة بالثورة لتحطم معنويات الثوار والأكثر خطورة أننا وجدنا نفس النخب الإعلامية فى الدول الهادئة يقفون موقفا معارضا للثورات فى الدول الأخرى حتى لا تمتد إلى بلادهم ورأيناهم يستعينون فى ذلك ببعض الكتاب الذين يتمتعون بصفات القطيع فى بلادهم ليهاجموا ثوار الدول الأخرى .. بل لم يكتفوا بذلك فرأينا بعضهم يسافر إلى هذه الدول كما حدث فى ليبيا التى استعانت برجل يدعى انه محلل سياسى لبنانى جلس أربع ساعات فى تلفزيون ليبيا يهاجم الثوار ويؤكد نظرية المؤامرة ..

# ثقافة القطيع بعد الثورة

بعد نجاح الثورة وسقوط الجبارين فى مصر تغيرت مصر وتغير القادة وتغيرت الأحلام والآمال ولكن القطيع لم تتغير ثقافتهم ..

لكن النخب الفكرية والإعلامية من القطيع تحولوا 180 درجة وفجأة بدون مقدمات .. وأصحاب المصالح الذين كانوا متعاونين مع النظام صاروا يرددون الأكاذيب والإشاعات حول ضعف الأمن وضياع الاستقرار .

أما النخب الدينية التى هى أساسا تعتمد على القطيع فى نشر فكرها خرجت من القمقم ومن السجون لتسيطر على الآلة الإعلامية وصارت تتحدث وكأنهم أبطال الثورة وكأن الثورة قامت من أجلهم ومن أجل رفع الظلم عنهم ولم يكتفوا بذلك بل تصوروا أنهم القادة الجدد فكان حديثهم واثقا ..عالى الصوت متعجرفا .. واستعانوا على المستوى الشعبى بخطباء المساجد الذين لا يعرفون من أصول الخطابة إلا ما يقوله أسيادهم أصحاب الخطاب الديني السياسى ...

وبين ذهول الشعب رأينا شعور من قاموا بالثورة من العلمانيين والليبراليين واليساريين شعورا محبطا ويقولون فى حواراتهم هل قمنا بإزاحة الدكتاتور ونظامه البشرى العنيف لنستبدله بدكتاتور يحكم باسم السماء مع نظامه الأشد عنفا

ورجاله الذين لا يرحمون من يخالفهم فى الرأى ..

ونزل أباطرة التيار الدينى ومعهم آلتهم الإعلامية الدينية المنتشرة فى المساجد ، نزلوا الى الشارع فى الانتخابات على التعديلات الدستورية التى رفضتها كل القوى السياسية التى قامت بالثورة أو أدانتها ، ليقولوا نعم للتعديلات الدستورية ولم يكتفوا بذلك بل رددوا الإشاعات وحولوا مسألة الاقتراع الى مشكلة طائفية مدعين أن المسيحيين سيقولون لا فلابد أن نقول نعم ..رغم أنه لا علاقة للمسيحيين بالأمر وخرجوا بالتصويت عن الهدف منه حتى يجبروا القطيع مستغلين ثقافتهم المتواضعة ليصوتوا بنعم لأن معنى التصويت بنعم هو إتاحة الفرصة لانتخابات برلمانية يسيطر عليها التيار الدينى الذى سيسمح له فى مجلس الشعب بتكوين لجنه تضع دستورا جديدا يسيطر عليه الفكر الدينى..

ولم يكتفوا بنشر الفتنة الطائفية فى التصويت بل أكد رجالهم فى المساجد ووسائل الإعلام والمنتديات والملصقات ان التصويت بنعم يدخل الجنة والتصويت بلا يدخل النار ...وصدق الكثير من القطيع ذلك .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه رغم ذلك صوتت 22.8٪ بلا، وهذه النسبة تؤكد أن قوى الثورة الجديدة المستفيدة ليست محدودة . فإذا كانت الثورة البلشفية فى روسيا لم تضم اكثر من 6٪ وثورة تركيا العلمانيه كانت قادتها يشكلون 1.5٪ فإننا فى مصر على سبيل المثال وبعد هذا التصويت الذى وصل الى 23٪ نعتبر ان هذه النسبه تعبر عن النخبة الجديدة التى سوف تقود مصر الى الدولة المدنية الحديثة ...

وكما حدث فى مصر حدث فى تونس وسوريا نفس الثقافة التى يحكمها فقه المصلحة تردد نفس الشعارات وكانها تقوم بثورة مضادة بدون وعى منها سوى أن هذه ثقافتها .. ثقافة العبيد الذين يريدون الاستقرار تحت حاكم ظالم نوع من القضاء والقدر .

كما قلت سابقا فإن القطيع لا يتعلق بالفقر أو الجهل أو الدين بمقدار تعلقه بثقافة الطبقة التى نشأ فيها ،لذلك وجدنا هؤلاء القطيع بعد الثورة وقد تعاونوا بشكل غير ممنهج مع الثورة المضادة التى شنها أصحاب المصلحة من النظم السابقة والذين سيتأثرون ماليا وأدبياً وربما يحكمونا جنائياً.. وجدنا قطيعاً فى بعض الأحزاب التى كانت أحزاب كرتونية لا تفعل شيئاً إلا أن تطبل للنظام التى يعطيها 100 ألف جنية إعانه سنوية وربما بعض الرشاوى العقارية أو غيرها ليسخروا صحفهم فى مدح النظام .

ووجدنا أيضا الكثير من رجال الإعلام الذين عاشوا عقوداً على مدح النظام ولم يعرفوا غير أسلوب المدح فى الشعر والأدب والصحافة وقد احتلو شاشات التليفزيون لينافقوا النظام الجديد بعد أن كانوا يسبحون بحمد النظام السابق ودون خجل ودون أن تحمرّ وجوههم ..

ووجدنا القطيع الشعبى الذي قام بمظاهرات فئوية يبحث فيها عن مصالحه الخاصة كعمال الشركات والمدرسين وموظفى الدولة والأطباء والمهندسين وسائقى النقل العام وغيرهم من أصحاب المطالب الفئوية...

لكن الغريب فى الأمر أن الفلاحين هم الفئة الوحيدة التى لم تتظاهر لتحقيق أى مطالب خاصة بهم رغم أنهم كانوا من أكثر الناس الذين تعرضوا للظلم فى النظام السابق، وتفسيرى لذلك أنهم مازالو يخضعون لثقافة الطبقة الدنيا التى لا يشغلها الهم العام فهناك من يتصدي لهم وهناك أيضا من سيأتى لهم أو لا يأتى بمطالبهم ويعرفون بذكائهم الفطرى أن التغيير قادم وسوف يأتيهم الفرج لمصلحتهم دون مشقة منهم أو تعب أو تظاهر ..

المهم أن ثقافة القطيع ما زالت تسيطر على الشارع المصرى وزاد الطين بله ما رأيناه أخيراً من صعود للتيار الدينى وخاصة السلفى منه .. فلقد وجد هذا التيار مساحة كبيرة من الحرية فانطلق كالوحش الجائع ليلتهم فرحة المصريين بثورتهم ويقتلها فى قلوبهم حتى صدم الشارع المصرى بكل فئاته حتى القطيع منهم وتصوروا أن لانهاية للصراع مع قوى الدكتاتورية فلقد تخلصنا من دكتاتورية بشرية لنستبدلها بدكتاتورية تحميها السماء ، يعتقد السلفيون أنهم رجالها وبدأوا يرهبون الشعب فمرة يقيمون الحدود بأنفسهم على من يتصورون أنه مفسد فى الأرض ومرة أخرى يتدخلون فى التصويت على التعديلات الدستورية ويقدمون فتاوى بأن نعم تدخل الجنة ولا تدخل النار أو أن نعم تعنى الإسلام ولا تعنى الكفر .. رغم أن التعديلات لم تشمل على الفقرة الثانية من الدستور التى تشير إلى أن دين الدولة هو الإسلام..

لقد نسى هؤلاء ونست كل النخب السياسية أن ديمقراطية التصويت وصندوق الانتخابات فى بلد يتجه نحو الحكم الدينى لن تؤدى إلى دولة مدنيه يحكمها القانون وسوف تكون ديمقراطية عمياء لا تكفى لتقيم حضارة أو تقود شعبا حرا للمستقبل ..

ومهما تحققت الديمقراطية الانتخابية فى ظل دولة دينية تراعى النصوص المقدسة وتأخذ رأى أهل الفتوى من رجال الدين فى المعاهدات والقوانين والمشاريع فسوف تكون ديمقراطية جريحة ومريضه ولن تحقق أى تقدم لشعوبها ، فسوف تقتل الإبداع وتعلى من دور الرقابة على كل شىء فى الفن والأدب والأسماء والأفعال وحتى العلاقات الخارجية وحتى طريقة اللبس ولن يهم أصحاب الدولة الدينية سوى ما يعتقدون انه صواب رغم مخالفته لمصلحة مصر

وشعب مصر .. ونظرة إلي ميدان التحرير الذي امتلأ بالبلطجية الذين دفع بهم رجال الحزب الوطني القديم لتشويه سمعه ثوار التحرير ولم يكتفوا بهذا؛ بل أطلقوا عليهم بعض النساء المسجلات آداب حتي يزيدوا في تشوية صورة الثوار، وقفت وسائل الإعلام في جانب غير محايد من إعلام النخبة السابقة لعمل لقاءات مع بلطجية الميدان بدعوي أنهم من الثوار إمعاناً في النكاية بشباب الثورة، مما أجبر الثوار علي القيام بمظاهرة متجهين الي القيادة العسكرية في العباسية لتبرئة أنفسهم والتأكيد علي سلمية المظاهرة، لكن البلطجية المدسوسين دخلوا في المظاهرة وأساءوا إليها، ووصل الأمر إلي اشتباكات بين الأهالي والثوار الذين أساء لهم البلطجية.

لذلك فإنى أتمنى أن يظل الثوار على تصميمهم على مطلبهم الأول وهو دوله مدنيه لا دينية ولا عسكرية ..لأن مصر تستحق أفضل من ذلك .. تستحق دولة مدنيه .. دولة ديمقراطية .. دولة بدون قطيع .. دولة تقف شامخة بحضارتها القديمة والحديثة وسط مصاف الدول العظمى .

# النخب الإعلامية بعد الثورة

مصر تغيرت ..الشباب تغير وقام بالثورة الحكومة تغيرت وجاءت حكومة «رشيدة » الشعب تغير وذهب إلى صناديق الاقتراع .. حتى الإخوان المسلمين تغيروا وعرضوا خطاباً معتدلاً .. كل مافى مصر تغير .. إلا النخب الإعلامية فى الإعلام المرئي والمقروء فبالإضافة إلى تعثرهم الإعلامي أثناء الثورة حيث ظهروا بمظهر مخجل أمام جماهير الثورة حتى أن بعضهم استمر حتى تنحى الرئيس مبارك وفقدوا القدرة على استشراق المستقبل أو تحديد موقف وطنى وهو أساس عملهم الإعلامى وبعد التنحى تحولت النخبة الإعلامية أو قل معظمها إلى 180 درجه وبنفس الحماس الذى كانوا عليه قبل التنحى بيوم واحد ..ثم جاءت الطامة الكبرى حين استشعرت هذه النخبة أن هناك بروزاً للتيار الدينى تحولوا من عدائهم لهذا التيار إلى تلميع رجالة فحولوا القاتل إلى بطل ثورى ورأينا عبود الزمر يخرج من قناة فضائية إلى أخرى حتى أصاب المصريين بالرعب حين تحدث عن شرعية قتل الحاكم والجزية لغير المسلمين ..ولم تكتفِ النخب الإعلامية باستضافة عبود وطارق الزمر؛ بل هرولت إلى كل القيادات الدينية لاستضافتها وكأنهم بذلك يقدمون و لاءهم للحكام الجدد كما يتصورون أو كما يقول القطيع «يا صابت يا خابت »!!

إن المتتبع لآراء النخبة الإعلامية فى مصر يستطيع بسهولة لاتحتاج لآراء علماء الاجتماع أن يدرك أن النخبة لا تختلف كثيراً فى ثقافتها عن الثقافة العامة والتشابه يبدو تماماً فى معظم الأحيان ويكاد ينطبق على أكثر من 85٪ من هذه النخب فإذا قلنا أن العامة من الناس ذوى التعليم الأقل أو لم يتعلموا بالمرة يجرون خلف الشائعات ولا يقبلون الاختلاف ويتمسكون بنظرية المؤامرة ويستفتون قلوبهم بدلاً من عقولهم ولا يؤمنون بالتفكير العلمى ويهتمون بالفضائح والثرثرة غير المفيدة . فهل تجد هناك اختلافاً بينهم وبين ثقافة النخب الإعلامية !! هل رأيت أحداً منهم لا يجرى خلف الشائعات ويذيعها فى برنامجه ثم نكتشف فى اليوم التالى أنها غير صحيحة.. هل رأيت أحدا منهم لا يتحدث عن نظرية المؤامرة ويؤكدون ليل نهار أن مصر مستهدفة !! هل رأيت أحدا منهم يعتذر عن خطأ ارتكبه!! إن التشابه يكاد يكون قريباً وهنا يبرز السؤال الهام وهو: إذا كانت مصر قد تغيرت ألا ينبغى أن تتغير النخبة الإعلامية التى يحكمها فقه المصلحة أو بمعنى آخر ملكيين أكثر من الملك أو بمعنى ثالث مطبلى النظام ..

وبمعنى رابع مغازلة الجماهير بدلاً من أن يقودوهم لما هو فى مصالح مصر إن مسئولية رجل الإعلام هى مسئولية خطيرة أمام الجماهير خاصة أن كل ما يعرضه يؤثر سلباً وإيجاباً عليها.. وأننى أدعوا هذه النخب التى هى ليست نخباً بالمرة أن تؤمن أن فقه المصلحة ليس لمن يتولون قيادة المجتمع لأن قيادته تحتاج إلى فقه الوطن وفقه المسئولية وفقه المثقف الحقيقى ، لكن للأسف.. «مصيبتنا فى نخبتنا »

## بعد ستة اشهر من الثورة

### من يستبدل الحرية بالأمن لا يستحق الحرية

بعد ستة أشهر حدث تغيير ملحوظ فى ثقافة بعض النخب وكذلك قطاع كبير من الشعب المصرى .. وعلى سبيل المثال وجدنا النخب الدينية وعلى رأسها جماعة الإخوان المسلمين والسلفيين .. لمسنا بعض التغيير فى قيادات الإخوان خاصة بعد أن أقاموا حزبا سمى « حزب الحرية والعدالة » فوجدنا بعض قيادات الحزب والجماعة مثل محمد البلتاجى وسعد الكتاتنى وآخرين وسليم العوا وعبد المنعم أبو الفتوح يغيرون خطابهم السابق إلى خطاب أكثر اعتدالا من حيث تمسكهم بالديمقراطية وتداول السلطة والدولة المدنية ويلحون فى هذا الاتجاه ولا يتعصبون فى أحاديثهم كالسابق ورغم الشكوك حول صدق هذا الخطاب من التيارات السياسية الليبرالية واليسارية إلا أن التغيير قد حدث وينضم إلى هؤلاء شباب الإخوان المسلمين الذين خرجوا إلى ميدان التحرير واحتكوا بالشباب العلمانى الذى ينتهج الليبرالية واليسار كمذهب سياسى حدث الاحتكاك بين شباب الأخوان وبين الشباب العلمانى وتمت بينهم مصالحة ثقافيه أدرك فيها شباب الإخوان خطأ الاعتقاد بأن هذا الشباب هو شباب فاسق وغير واعى بمشاكل مجتمعه ، وأدراك شباب الأخوان أنهم قابلوا شبابا متقفا قارئا نهماً لكل مصادر المعرفة بينما كان شباب الأخوان احادى التفكير يقرأ فى اتجاه واحد وهو ما يتعلق بالدين فقط – حدث الاختلاط وتبادل الأفكار وبدأ شباب الأخوان يغير فكرة الثقافى حتى كونوا فكرا تقدميا يفوق قاداتهم .

أما السلفيون فقد تحلى القليل من قادتهم بالوعى السياسى المعتدل أما الغالبية فمازال خطابهم أكثر عنفا مثلهم مثل بعض قادة الأخوان الذين ما زالوا يتمسكون بخطابهم القديم.

بعد ستة اشهر من الثورة مازال القطيع يمارس ثقافته من ثلاثة جهات .

**الجهة الأولى** : الحكومة الحالية التى مازالت تمارس العادات القديمة للنظام السابق فى الحكم . فقد أطلقت البلطجية على الثوار فى المظاهرات المختلفة أمام مبنى التلفزيون وميدان التحرير وأطلقت آلتها الإعلامية لتقول للناس هاهم الثوار أنهم بلطجية ولم نكتف بذلك ؛ بل أطلقت بعض الفتيات سيئات السمعة والمسجلات آداب فى ميدان التحرير فى أحد الأيام لتشويه صورة الثوار .

ولم تكتفِ بذلك بل صارت تلاعب المصريين فى القبض والإفراج عن المحبوسين من النظام السابق وإطلاق الإشاعات حول مرض الرئيس وزوجته واستخدمت نفس الأسلوب القديم الذى كان يتعامل من الشعب على أنه شعب غبى يصدق كل ما يقال ليه !..

**الجهة الثانية** : وسائل الإعلام ..

انفردت بعض القنوات التابعة للنظام أو غير التابعة ومعها بعض الجرائد وكذلك المواقع على الانترنت فى نشر فكرة غبية كان النظام السابق يرددها دائما وهو أن مصر مستهدفة من الخارج وحاول الإعلام الإتيان بمصادر وصور غير موثوقة تؤكد أن الثوار تلقوا دعما خارجيا من أمريكا وأوروبا وإسرائيل للقيام بالثورة ومحاوله اكتساب موقف عدائى من قبل الشعب للثورة عامة وكراهية الثوار واستعانت ببعض النخب القديمة الجديدة من القطيع وفتحت لهم الاتصالات والحوارات ومانشيتات الصحف – ولكن كل هذا ووجه بالفشل بعد الثورة الثانية فى جمعه « الثورة أولاً » فى ميدان التحرير وكل ميادين مصر .

**الجهة الثالثه**.. مازالت ثقافة الكثير من الشعب تنتمى ثقافته للعبودية وتصديق كل ما يقال له فى شاشات التلفزيون .. وهو القطيع الذى يخاف على مصالحة الآنية مثل رغيف العيش وعمله وشعوره بالأمن فصاروا يرددون ان الثورة خطر على مصالحهم .

لقد نست الحكومة ووسائل الأعلام والشعب « **إن من يستبدل الحرية بالأمن لا يستحق الحرية** » وهذه مقولة حقيقية وسط هذا الزخم الذى تعيشه مصر الآن .

لذلك قامت جماعات كثيرة من القطيع الشعبى فى الحصول على مكاسب سريعة وسط هذا الانفلات الأمنى فزات حوادث الأعتداء على السيارات والأشخاص والممتلكات .

**الحــل**

فيما سبق قدمت وصفا مختصرا للحالة المصرية، وما أصبحت عليه من انهيار لمنظومة القيم المصرية، ما أدى بالتالى إلى تآكل الشخصية المصرية وخضوعها لكل السلبيات القيمية سواء كانت قادمة إلينا من بلدان مجاورة أو من صنع حكومات افتقدت الرؤية الشاملة سواء فى إدارة مصر، أو فى التفريط فى المقومات الصلبة للمصريين التى تشكلت بها هويتهم لآلاف السنين.

ثم عرجنا إلى الأسباب التى أدت إلى ضعف الشخصية المصرية وإلى تآكل منظومة القيم لديها وعزونا ذلك إلى الأسباب التالية:

1- استبدال الثقافة المصرية بثقافة حزام الرعى لألف وأربعمائة سنة.

2- انهيار الطبقة الوسطى.

3- صعود الطبقة الدنيا بعد الثورة.

4- سيطرة ثقافة القطيع على الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية.

5- سيطرة ثقافة القطيع على النخبة.

6- أسلمة المجتمع المصرى بطريقة «فقه البداوة» فجعلته يتجه إلى السماء بدلا من عمارة الأرض.

وحتى لا نقيم دراسة تنحو إلى الرفاهية من حيث وصف المشكلة فقط دون إيجاد الحلول.. فإننى أقدم فى الصفحات الآتية ما أعتقد أنه حل لمشكلات هذه الدراسة وتتجلى هذه الحلول فى النقاط الآتية:

1- إزالة الصدأ عن الهوية المصرية وإعادة بناء الشخصية المصرية، ورفع الغطاء عن تراثها العلمى والأدبى الرفيع.

2- إعادة بناء الطبقة الوسطى الجديدة وإفساح المجال لها لاحتلال موقعها الحقيقى فى المجتمع.

3- خطاب ثقافى جديد يكون على وعى كامل وقدرة على التفكير الشامل ، هدفه تفعيل العقل والأسلوب العلمى فى إدارة الشخصية المصرية.

4- رفض كل الخطابات الدينية إسلامية ومسيحية والحد من سلطة رجال الدين.

# بناء الهوية المصرية

هناك قاعدة يذكرها دائما المفكرون المهتمون بعلم الحضارات مؤداها «أن أى شعب من الشعوب لا يستطيع التقدم وهو يعيش فى جلباب ثقافة أخرى» وهذه القاعدة رأيناها تنطبق مثلا على جوائز نوبل فى الأدب وتنطبق على مهرجانات الأفلام السينمائية حيث تعطى جوائز نوبل للكاتب المغرق فى المحلية ولا عجب أن 90٪ من الحاصلين على جوائز نوبل فى الأدب كانوا مهتمين بتصوير الواقع المحلى بدقة متناهية، ورأينا ذلك مثلا فى كتابات نجيب محفوظ الذى تميزت كتاباته بمصرية شديدة حتى إنه غرق فى الحياة الاجتماعية للحارة المصرية، ونفس الشىء يتعلق بجوائز الأفلام فى المهرجانات العالمية ؛ فالإبداع لا يكون إلا إذا كنت مرتبطا ارتباطا شديدا بهويتك وحتى أقترب من الشرح فإننا لتقريب وجهة النظر هذه نلاحظ فى مجال الفن مثلا أن الفنان محمد فوزى وكذلك إسماعيل ياسين على سبيل المثال كانا شديدى المصرية لذلك سبقا بإبداعهما الآخرين وعاشا حتى الآن بهذا الإبداع ومازلنا نجد فيهما إبداعا قابلاً للحياة بعد كل هذه السنين.

فالهوية هى روح الإنسان وإذا اهتزت هوية أى شعب من الشعوب فإنه إما يقف مكانه فى حالة ثبات لا يتقدم، وإما يتقهقر إلى الخلف.

وهناك ملاحظة أخرى يجب أن نهتم بها لنرد على دعاوى العولمة وان العالم يتجه إليها ؛ ولم تعد للهويات مكان فى عالمنا المعاصر.. وهذه المقولة خاطئة يكررها من لا يفهم طبيعة الهوية ومدى تأثيرها فى الشخصية.

فلقد رأينا الدول التى كانت تابعة للاتحاد السوفييتى أو تشيكوسلوفاكيا أو يوغوسلافيا بعد تفكك هذه الدول قد عاد كل شعب فيها إلى هويته الأصلية فرأينا كازاخستان وتركمانستان والصرب والبوسنة وكرواتيا وغيرهما كلُ عاد إلى هويته الأصلية.. وهذا لا يعنى أن العولمة قد سقطت وإنما يعنى أن العولمة تحترم الهويات فلكل هوية الحرية الكاملة فى إبداعها ولكن العولمة تكون فى النظامين الاقتصادى والتجارى وفى ثقافة حقوق الإنسان واحترام بشريته وفى وسائل الاتصال.. العالم قرية واحدة بمعنى أن المجتمعات لا تعيش بمنعزل عن الأخرى ولكن تحكمها قوانين عالمية يجب احترامها.

أما عن مصر فإن دخولها الإسلام جعلها دولة مؤثرة إسلاميا خاصة بحكم تراثها الحضارى القديم من ناحية ولأنها دولة مؤثرة بحكم موقعها وتأثير شعبها فى التاريخ الإسلامى.

ولكن الخطأ الذى ارتكب فى حق هوية شعب مصر كان كبيرا بسبب الخطاب الدينى العنيف الذى حمل صبغة وهابية جعلت مروجى هذا الخطاب يكفرون الحضارة المصرية وكل ما قامت به من إبداع.

وقد سبق الحديث عن ذلك ولكننا الآن من واجبنا أن نسأل كيف نعيد بناء الهوية المصرية حتى نستطيع أن نبدع فى عالمنا المعاصر وأعتقد أننا نستطيع أن نفعل ذلك على النحو التالى:

– إعادة بناء المناهج الدراسية على نحو يسمح بدراسة التاريخ المصرى القديم على أن يكون التاريخ الأم للمصريين وإعطاؤه الأولوية.

– نشر قصص الأدب المصرى القديم الممتلئ بها التاريخ المصرى وهناك مئات القصص الموجودة فى هذا التراث.

– خطاب ثقافى وإعلامى يرسخ لتمصير مصر وإعادتها إلى حظيرتها المصرية ويؤكد على فخر المصرى بحضارته القديمة.

– إعادة الرحلات لطلاب المدارس لزيارة الآثار المصرية فى الأقصر وأسوان والمتحف المصرى وإعداد برامج ثقافية لهذه الزيارات.

– الاحتفال بالأعياد المصرية القديمة مثل فيضان النيل وشم النسيم والحصاد وغيرها وأن تقام الزينات والفرق الموسيقية وعربات الورود لتجوب شوارع مصر كلها فى هذه الاحتفالات.

وقد يسأل سائل وما الجدوى من أن نكون فراعنة فإننى أقول له وما الجدوى من أن نكون عربا أو أفغان، وما الجدوى الحضارية التى حصلنا عليها من انتسابنا إلى العرب أو من غيرهم.

ان الهوية المصرية مازالت تعيش داخل المصرى ونستطيع أن نلحظها فى احتفال المصريين بشم النسيم ورأيناها واضحة عندما انتقل الملك رمسيس من ميدان رمسيس إلى موقعه الجديد رأينا كيف خرج المصريون فى طريقه يلقون عليه الورود والملح وهى عادة مصرية قديمة.. ان الهوية المصرية لم تمت داخل كل مصرى حتى فى حرب 1973 انتصر المصريون لأنهم كانوا يدافعون عن هويتهم التى تجلت فى استرداد أرضهم فى سيناء فمن ضمن مقومات المصرى أن يموت دفاعا عن شبر واحد من أرضه فهويته تقول إن الأرض كالعرض.

إن البداية الحقيقية لإعادة منظومة القيم المحترمة تبدأ من بناء الهوية من جديد.

## إعادة بناء الطبقة الوسطى

قد يسأل البعض: هل هناك طبقة وسطى فى مصر؟!

وللحقيقة نقول إن الطبقة الوسطى قد انهارت تماما واختفى تأثيرها القيمى على المجتمع.. وكما قلت سابقا فإن هناك طبقة وسطى من الناحية المادية ولكن هذه الطبقة تحمل قيم الطبقة الدنيا الآن.. لذلك فالتقييم من الناحية القيمية يعنى أنه لا وجود للطبقة الوسطى، أما من الناحية المادية فهى موجودة ماديا ولكنها تفتقد قيم الطبقة الوسطى الحقيقية التى كانت موجودة فى مصر حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضى.

ولكن ومع مزيد من التفاؤل نستطيع إن نقول أن هناك بوادر اجتماعية تقول إن المجتمع المصرى الآن بدأ يفرز طبقة وسطى جديدة بالمعنى المعروف للطبقة الوسطى، وقد بدا ذلك جليا فى حركة جمعيات المجتمع المدنى خاصة المهتمة منها بالسياسة.. ونستطيع أن نرصد من هذا الحراك المجتمعى بداية ظهور هذه الطبقة والعودة للحياة..

ونستطيع أن نقول إن الألفى شخص الذين ذهبوا لاستقبال الدكتور البرادعى فى المطار هم نواة هذه الطبقة، فهؤلاء لا ينتمون إلى أحزاب مريضة أو إلى جماعات دينية مسيسة وإنما هم مصريون يشعرون بالهم المصرى ويحملون مصر فوق رؤوسهم.. لقد ذهبوا بدافع قيمى وهذا الدافع كان دائما من خصوصيات الطبقة الوسطى فى المجتمع.

لقد أفرز المجتمع فى السنوات الأخيرة تماشيا مع الحركة المجتمعية التاريخية جيلا جديدا.. قد يكون آباؤهم من الطبقة الدنيا السابقة التى أصبحت تملك المال والسلطة الآن وقد يكون هذا الجيل من أبناء الطبقة الوسطى القديمة ولكنهم أصبحوا يملكون الجرأة والاستعداد للعب دورا مجتمعيا حقيقيا..

هذا بالإضافة إلى وسائل الاتصال الحديثة مثل الانترنت التى أصبحت محركا لأى حراك مجتمعى وتبادل المعلومات مع العالم الخارجى.. فإذا أضفنا إلى ذلك انتشار مدارس اللغات والمدارس الأجنبية وكذلك الجامعات الخاصة قد ساعد هذا الجيل المنتمى لهذا النوع من التعليم على اتقان اللغات الأجنبية بما ساعدهم بعد ذلك للاتصال مع ثقافات غربية وجمعيات سياسية تدعو لأفكار تحررية أو حضارية.

لكل هذه الأسباب نستطيع أن نرصد بدايات جديدة لظهور طبقة وسطى بمعناها القيمى فى مصر..

لذلك فإننى أهيب بالمسئولين عن التعليم وكذا المسئولين عن وسائل الإعلام لتوجيه هذا الجيل وتثقيفه وتسهيل الحصول له على دورات تدريبية سياسية ومجتمعية.. لأنهم هم النواة الحقيقية لطبقة وسطى تعيد التوازن المجتمعى الذى يسيطرعليه طبقة واحدة الآن بقيمها وسلوكياتها التى تعود إلى الطبقة الدنيا.

كما أن هناك مسئولية كبرى على النظام المصرى فى ضرورة استبدال المواقع القيادية التى تحتلها النخبة الحالية فى كل المجالات بأفراد من الطبقة الوسطى الجديدة، وتسهيل اشتراكهم فى العمل السياسى والاقتصادى والمجتمعى.

# تفعيل العقل والتفكير العلمي خطاب ثقافي لا خطاب ديني

كثر الحديث بعد الاضطرابات الطائفية الأخيرة عن ضرورة وجود خطاب دينى جديد يدعو إلى نبذ العنف وإزالة الاحتقان والعودة للتسامح والوسطية..

وقد طالب البعض أن يكون الخطاب على المستويين الإسلامى والمسيحي..

هذا الكلام يتردد منذ بداية الثمانينيات بعد أحداث الإرهاب.. لكن المؤسسات الدينية على المستويين الإسلامى والمسيحى أظهرت العين الحمراء لأصحاب هذه الدعاوى.. وانبرى رجال الدين من الجهتين يضعون خطوطا حمراء ممنوع الاقتراب منها.. ونسوا أن المواطن المصرى ينبغى أن تكون له خطوط حمراء أيضا.. وخطوط المواطن المصرى تتجلى فى عبوره إلى عالم أكثر تحضرا وأكثر احتراما لحقوقه الإنسانية على المستوى السياسى والاقتصادى والأمنى.

إن المواطن المصرى يريد التقدم إلى الأمام بينما المؤسسات الدينية تسعى إلى جره إلى الخلف.. إن التقهقر يتعارض مع الخطوط الحمراء للمواطن المصرى.. لذلك أعتقد أن الدعاوى المطالبة بخطاب دينى جديد هى دعاوى للوقوف محلك سر فى مكانك، وذلك لأن المؤسسات الدينية

فى الأساس تقف فى جانب تهميش العقل والتفكير بالأسلوب العلمى.. حتى إن الأفكار التى يدعون إليها نجدها تبتعد كثيرا عن الكتب المقدسة وتقترب كثيرا من الثقافة المصاحبة لهذه الكتب حتى وإن كانت تخالفها.

إذن فليس هناك جدوى من خطاب دينى جديد لذلك فضرورة خطاب ثقافى هو المطلب الملح الآن لانتشال المجتمع المصرى مما هو فيه من تخلف.

لقد تقابلت كما قلت مع بعض الأوروبيين الذين زاروا الأقصر وآثارها، ولم أذهل عندما قالوا لى: بعد أن رأينا الحضارة المصرية القديمة تعجبنا من تخلفكم، فلقد كان ينبغى أن تكونوا على قمة العالم.

إن الخطاب الثقافى الذى أقصده ينبغى أن يحمل فكرا استراتيجيا و يحمل أهدافا محددة تأخذ بيد هذا الجيل إلى احتلال مكانة مرموقة وسط العالم فى الألفية الثالثة، ويتعاون فيه التعليم والإعلام والاقتصاد والسياسة وكل القوى الفاعلة فى المجتمع.

كما ينبغى أن يشمل هذا الخطاب فكراً استراتيجياً جديداً يتجه إلى المستقبل ويكون شاملا لكل المشاريع التقدمية على كل المستويات على أن يحمل داخله عوامل حازمة فى إحكام التطبيق الجيد لهذا المشروع الحضارى وأن يعزى إلى تنفيذه رجال الطبقة الوسطى الجديدة.

# الخلاصة

إن انهيار القيم فى مصر سببه الرئيسى هو سيطرة الطبقة الدنيا اقتصاديا وثقافيا وسياسيا على المجتمع المصرى.. وتم انتخاب أفراد من هذه الطبقة لإدارة المجتمع وأصبحوا من رجال النخبة التى تتشكل غالبيتها من الطبقة الدنيا.. ولقد احتلت هذه النخبة كل المراكز القيادية فى المجتمع وأصبحت توجه الجماهير تبعا لثقافتها هى ، وتبعا لمخزونها الثقافى واحتلت الميديا الإعلامية وسيطرت عليها وانتشرت الصحافة الصفراء المقروءة والمرئية ورأينا القنوات الفضائية تقوم بدور محاكم التفتيش للأفراد القلائل من مفكرى الطبقة الوسطى القديمة.

لقد تم احتلال هذه النخب القادمة من أسفل قمم المجتمع فنشرت ثقافتها على كل أفراد المجتمع دون أن تكون هذه النخب معدة ثقافيا أو قيميا أو سلوكيا لاحتلال هذه المناصب.. فمازالت تسيطر عليها ثقافة العبيد رغم حصولهم على شهادات الدكتوراه والماجستير ورغم أن منهم من أصبح وزيرا أو رئيس مجلس إدارة أو مذيعا تليفزيونيا أو نجم سينما أو رئيس تحرير صحيفة مؤثرة..

إن المعلوم والمعروف أن النخبة هى التى توجه الرأى العام أو الشارع لكن ما يحدث فى مصر الآن أن ثقافة القطيع هى التى توجه النخبة سواء كانت هذه النخبة من القطيع أو

من طبقة أعلى.. وهذا الخلل هو أخطر ما يصيب المجتمعات ويقف حائلا دون تقدمها وتحضرها.. ولن يستقيم الحال فى مصر إذا استمر الحال كما هو عليه لأنه وضع مقلوب ولم يحدث إلا فى عصور التخلف والانحطاط.. وهذا ما تعيشه مصر الآن.

ونفس الحال فى مصر لا يختلف كثيرا عن الدول العربية الأخرى وهذا ما أريناه فى ثورة تونس وسوريا وليبيا والبحرين واليمن فقد كان الأداء الإعلامى يكاد يكون نسخه مكرره ومقولات ثابته منذ عقود كثيرة من الحكم الاستبدادي ويمكن تلخيصها فى الجمل الآتيه البلد مستهدف وهناك مؤامرة خارجيه و تنظيم القاعدة يحرك الأحداث «الاستقرار أفضل من الفوضي » ويقصدون به الاستقرار مع الاستبداد ...وكما أنتشرط هذه المقولات فى النخب الإعلامية ..كان التحامل على الثورة يأتى من القطيع الذى يبحث عن مصالحه الضيقة ويفضل الحياة فى منظومة ظالمة ومستقرة عن رغبته فى الحرية .

ولعب التيار الديني فى كل الدول العربية دورا هائلا ليؤكد سيطرته على القطيع من جديد حتى بعد قيام الثورات لآن ثقافة القطيع دائما ما يكون وعاءها الدين الذى يؤكد المقولة « كما تكونوا يولى عليكم » ونسوا أن الشباب استطاع أن يغير من تولى عليهم بثورتهم العظيمة حتى أن الكثير من القطيع فى البلاد العربية كانوا يؤكدون دائما أن الله هو صانع الثورة ويرفضون أى فضل للشباب فيها ونسوا تعاليم الله التى تؤكد . أنه خلق الإنسان ليعمر الأرض ويقود مسيرته بنفسه بمباركة منه ونعمة ..

## الحاجة إلى ثورة ثقافية

لقد أصبحت الحاجة ملحة إلى ثورة ثقافية يكون هدفها الأول استدراج القطيع سواء من عامة الشعب أو من النخبة وفى كل البلاد العربية التى تشابهت فيها الثقافة المنتشرة تتشابه الحكام ..نشر خطاب ثقافى جديد يغير مفاهيمهم السلبية وينبغى أن تكون أدوات الثورة هى التعليم والإعلام والإضراب والقوى الشابة والمناخ الاقتصادى والقوانين التى ينبغى أن ترسخ المفاهيم القيمية الجديدة فى علاقة الشعب بالحكام وعلاقة العامل بالمؤسسة التى يعمل بها وعلاقة رب العمل بالعامل وعلاقة الشرطه بالجماهير وعلاقة الجميع بمفاهيم حقوق الإنسان .. حتى علاقة الرجل بالمرآة وعلاقتهما بالأولاد وعلاقة المؤسسة التعليميه بالنشئ ..

نحن فى حاجة إلى ثورة ثقافية تنتشل القطيع من براثن الغيبوبة وبراثن التخلف وبراثن الأكثر خطورة وهو فئه المصلحة الذى يسيطر على ثقافة القطيع من عامة الشعب ومن النخبة

# كتـب للمؤلف

- تاريخ الفلسفة دار نشر كنوز.
- الصحة النفسية لشعراء الحب العفيف .
- الإسلام منهج وطريقة تدريس مكتبه لبنان .
- مصر بين العقل والعقال توزيع الأهرام .
- الشطار مسرحية .
- الزلزال مسرحيه فيديو .
- عفوا أيتها الزوجات دراسة.
- الصالحية مجموعة قصصية .
- حب اسكندرانى مجموعه قصصية .
- المسكوت عنه فى دخول العرب مصر.
- سلسلة كتب فى المناهج وطرق التدريس 12 كتاب .
- ثقافة القطيع وصف الحالة المصرية قبل وبعد الثورة.
- التقاطعات الفونيمية فى اللغة العربية المعاصرة جامعة الدول العربية .
- شبه الجزيرة العربية أسباب الصعود وأسباب النزول .

# الفهرس